

روايات

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

نحن والإسلام

Islam and Us

Dr. Naguib Al Keilany



روايات
د. نجيب الكيلاني
من روائع الأدب الإسلامي



نحن و الإسلام

Islam and Us

Design by Abdul Rahman Magdy



دار الصحوة للنشر والتوزيع
Telefax: +202 42 10 60 60
Mobil:+20 1114520485
daralsahoh@gmail.com

نحن.. والإسلام

تأليف
د. نجيب الكيلاني



الطبعة الأولى

1437هـ - 2015م

رقم الإيداع
2015/13318

الترقيم الدولي
2- 465- 255-977-978



القاهرة - تليفاكس: 0020242146060
موبيل: 00201114520485
daralsahoh@gmail.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:108]

صدق الله العظيم

مقدمة



إن الأمة عندما تحل بها أزمة من الأزمات، أو تستعصي عليها علة من العلل، ليس من الحكمة أن تلقي بنفسها في أتون المعركة الحامية دون أن تتخذ العدة لذلك، وتضع التخطيط .المناسب لحجم المعركة، وعليها في الوقت نفسه أن تدرس أسباب الخلل الطارئ وتدرس أبعاده، وبذلك تستطيع أن نضع التشخيص الصحيح لما أصابها، ومن ثم يمكنها - في ضوء التجربة والتفكير الحر النزيه - أن تعثر على العلاج الناجع لكل أدوائها..

وبالطبع فإن فورات الحماس الطائش، والاندفاع الأرعن، والتخبط الارتجالي لن يحقق النتيجة المرجوة، ولن يصل بنا إلى برّ الأمان، وليس من باب الصدفة المحضة أن تتبجح الصهيونية وتغالي في أطماعها وغرورها، وأن يباد المسلمون في الفلبين، ويطردوا من بورما، ويذبحوا في أريتريا، ويمزقوا في أوجادين،

وتدبر لهم المكائد في باكستان، ويمحى وجودهم في أراضٍ أخرى.. أقول ليس من باب الصدفة أن يحدث هذا كله في وقت واحد، فالأمر جد خطير، وأي مراقب للأحداث في هذه العصر، يدرك أن هناك مخططات خبيثة ترمي لتمزيق وحدة الصف الإسلامي، وتعويق مسيرته، وإثارة غبار الشبهات والمطاعن من حوله، وبذلك يبقى أسير الضعف والهوان، مغللًا بأغلال التخلف والفقر والجهل، ويديهي أن تُنزح ثرواته، وتستنفد طاقاته في معارك جانبية، تبعده عن الهدف الأسمى الذي رسمه الله لخير أمة أخرجت للناس.. وكان لزامًا على كل مسلم أن يلم بأطراف تلك المؤامرة التاريخية الخطيرة، وأن يفعل شيئًا -أي شيء- لكي يجنب جيله والأجيال القادمة مؤنة الضياع والدمار..

وعلى كتَّاب هذا الجيل أن يدركوا أساسيات الفكر الإسلامي وقوانينه الحركية، وعناصر السلب والإيجاب فيه، وأن يوجهوا قدرًا أكبر من الاهتمام لشباب هذا الجيل، الذين سوف يحملون الأمانة من بعدهم..

وقناعتي التامة، بأنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها، وأن الحل الإسلامي هو الحل الأمثل، وأننا أمام طوفان العقائد والقيم الرافدة من أرض غريبة، لا يمكننا أن نحمي كياننا وتراثنا ومستقبلنا، ونحقق النصر في معركتنا المصيرية

الحاسمة إلا إذا التزمنا بعقيدة تقوى على مجابهة تلك التحديات المدعمة بمنجزات العلم الجديد، والتكنولوجيا الحديثة.. هذه العقيدة هي الإسلام.. ولنا في تجربته الحضارية أصدق برهان على ما نقول، ولنا في عناصره المتماسكة الشاملة -إذا ما قيِّمت بالمقاييس العلمية المحايدة الصادقة- أقوى دليل..

***

وهذه الصفحات التي تناولت فيها بعض الجوانب المهمة في الفكر الإسلامي، إنما هي مجرد لقطات من تراث الفكر الإسلامي الضخم، وبطبيعة الحال فهي لم تكن شاملة لكل ما يجب أن يقال في هذا المجال، ولكنها في الواقع كلمات موجزة، تشير إلى ما يجب أن نفكر فيه، ونركز عليه في هذه الآونة، وقد قصدت بها -أساسًا- شباب الجيل الجديد، آملًا أن يتخذوا الإنصاف والعدل والتجرد ديدنًا لهم وهم يتلقون الفلسفات المعاصرة، فلا يقعوا في الفخ الذي نصبه لهم طوابير الغزو الفكري، وينصرفوا عن دراسة تراثهم الإسلامي، وأصول الحضارة الإسلامية الخالدة، وبذلك يمكنهم أن يعقدوا الدراسات المقارنة المنصفة.. إن مثل الذين يكتفون بالأفكار المستوردة، ويتخذون على أساسها موقفًا كمثل الذي يسمع من

طرف واحد، ثم يصدر حكمه في القضية.. وحاشا لله أن يكون شبابنا كذلك..

فلنقرأ معًا هذه الصفحات، لعلنا نجد فيها نافذة تطل بنا على الأمل في حياة أفضل وأعدل وأروع..

والسلام.

نجيب الكيلاني

الشخصية الإسلامية



العلاقة بين الحضارة والشخصية علاقة أساسية وثيقة، لأن الإنسان بما يحمله من قيم وأفكار، وما يؤديه من سلوك، وما يستقر في خاطره من أهداف، وما يتخذه من وسائل، هذا الإنسان هو صانع الحضارة، وبقدر ما تتميز به شخصية الإنسان، تكون تميز الحضارة التي يعبر عنها، ويؤثر فيها ويتأثر بها..

وبذلك نستطيع أن نقول أن الإنسان هو لبنة البناء لهذه الحضارة بما يترجم عنها من تصرفات وسياسة واقتصاد وفن، ولهذا كان لكل حضارة من حضارات التاريخ الصورة الخاصة بها، فالحضارات المعاصرة بما لها من صفة مادية ترتكز على إشباع حاجات الإنسان المادية الملموسة التي تتعلق بمأكله وملبسه، وشرابه وطعامه، وقوته ونفوذه، والوسائل الصناعية التي يسَّرها له العلم، كي يحيا حياة فيها الرفاهية والراحة والرخاء المادي

بمختلف صوره وألوانه، بصرف النظر عما تعتنقه حضارته تلك من مظالم وإجحاف بحقوق الضعفاء والمساكين من الشعوب الفقيرة التي لا تملك أدوات القوة والعلم والتكنولوجيا، فهي حضارة سعادة عند البعض، وعالم من شقاء عند البعض الآخر..

لكن الشخصية الإسلامية العادلة الواعية المؤمنة هي التي قدمت أنظف حضارة عرفها الإنسان في تاريخه الطويل..

وكانت هذه الشخصية إسلامية بكل ما تحمله تلك الكلمة من معانٍ.. فالإسلام قد وضع الآداب الأخلاقية والاجتماعية لهذه الشخصية، فالمسلم في حياته اليومية، ملتزم بتلك الآداب صباحًا ومساءً، يسير في ضوء الشعار الكبير الذي رسمه القرآن الكريم بقوله:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾

[الذاريات:56-58].

والعبادة لها معنى شامل واسع، فهي تحتضن كل الصور الحية الإيجابية في حياة الإنسان، فنجد فيها الصلاة وما تعنيه من طاعة الله، وشكر على نعمائه، وما تزخر به من خشوع وصفاء

وحب، وما تضمه من تجرد ووحدانية الله، وطرد كل وساوس الخوف والشك، وإفراد المولى بكل سلطان وقدرة وتصرف في شؤون الكون بكل ما فيه من إنسان وحيوان ونبات وجماد، ودعاء بأن يكون الله إلى جوارنا، ليهدينا إلى الطريق المستقيم، ولينجينا من الغفلة والضلال والشرك ذي الصور العديدة..

والصوم بما يزرعه فينا من ألوان الاستسلام لله، والاستجابة لآدابه التي دعانا إليها، وتعلم الصبر والإرادة، وجعله سبحانه وتعالى هو المقصد والمآب، وغير ذلك من المعاني الخالدة التي تجعل من الصوم مدرسة تربوية بكل ما تحمله تلك الكلمات من معنى الصوم الصادق الصحيح هو الآخر عبادة..

والزكاة وأهدافها السامية في تنقية النفس من الجشع والطمع والأنانية، واستشعار رباط الإخوة والتضحية والإيثار والتعاون بين أفراد الأمة جميعهم، وإزالة الأحقاد والحقد والحسد من النفوس، وتقريب المستويات الاجتماعية والاقتصادية.. على أساس أن المال مال الله، وأننا مستخلفون فيه.. الزكاة بمعناها الحقيقي هي الأخرى عبادة من أحسن العبادات..

والعمل من أجل كسب العيش، والسهر على الصناعة والزراعة والتجارة الأمينة، وكل ما يتعلق بأوجه النشاط الإنساني في الجانب المادي، يعتبر عبادة حقيقية، ما دام الهدف

وجه الله، وليس استغلال الغير، أو الافتئات على حقوق الآخرين..

والدعوة إلى الله، وما يواكبها من تجرد وجهاد في سبيله، وذلك بقصد إنارة العقول، والأخذ بيد البشر إلى الطريق المستقيم، وفتح السبل أمام كلمات الله كي تصل إلى المعزولين المحرومين المحتاجين إلى الهداية، وإلى العقيدة الصحيحة، وأسس الحياة العادلة، وأفضل النظم لتنظيم العلاقات الاجتماعية والفردية، كل هذه الأمور عبادة من أروع العبادات..

وطلب العلم بالنسبة للشخصية الإسلامية فريضة، العلم بشقيه: الديني والدنيوي، فهما في نظر الإسلام يضمهما نسج واحد، لأنهما يشتركان في غاية واحدة، هي الوصول إلى الحقيقة، كي نعرف الله المعرفة الصادقة، وتحقق السعادة للإنسان، وننهض بشؤون هذه الدنيا في شتى نواحيها.. العلم إذن على أساس هذا التصور عبادة، بشرط أن يكون أداة بناء لا تدمير، ووسيلة إسعاد لا إشقاء، ونبراسًا يهدي، لا نارًا تحرق..

والحج عبادة، لما يتمثل فيه من طاعة الله، وأداء الشعائر، والتقاء مع إخوة الإسلام من شتى أنحاء الأرض، والالتزام بزي واحد يلبسه الملوك والسوقة، وصور الوحدة الأخرى من سعي وطواف وتلبية وتهليل وابتهال إلى الله، وتذكر لنعم الله

علينا، وتحصيل قدر من المعرفة بسبب الأسفار أو السياحة المقدسة، وربط الجميع بحركة منتظمة شاملة تملأ قلب المؤمن بقيم غالية رفيعة، تزيد المجتمع الإسلامي ترابطًا وتوثقًا ومحبة..

وقس على ذلك، فإن كل أعمال البر والتقوى، والصدق والصبر، والأمانة والعفة، وتحمّل الإيذاء في سبيل الله، والرضى بقضائه، والشكر على نعمائه، وتلبية ندائه، في أي جانب من جوانب العمل أو السلوك أو القول، كلها تدخل في إطار العبادة بمعناها الشامل، فليست العبادة مجرد كلمات تقال، ودعوات تلقى، وحركات تؤدى، ولكنها حياة المسلم.. لأن المسلم الكامل -والكمال لله وحده- عبادة صرفة، يؤجر عليها.

وهذه العبادة لا تعود بالفائدة على الفرد فحسب، بل تأتي بالخير على المجتمع بأسره، سواء منه المسلم وغير المسلم..

هذه العبادة بمعناها الشامل هي التي شكلت الشخصية الإسلامية، وإنصاف هذه الشخصية بتلك الصفات الإلهية الفريدة هي التي أرسلت قواعد أعظم حضارة عرفها التاريخ قديمًا وحديثًا..



وكان تشرُّب الشخصية الإسلامية لهذه الصفات قائمًا على أساسين اثنين لا بد منهما:

أولهما: الكلمة.. أو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وما تشمله تلك الدعوة من قوة منطق، وصدق إقناع، وعظمة تسامح، وحرية في التفاهم والتعبير والمناقشة، دون قهر أو مَنّ أو تعالٍ.

وثانيهما: القدوة الحسنة، فلا معنى الكلمات المجردة، ما لم تكن سلوكًا يحتذى، وحركة حياتيه إيجابية نافعة ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ ﴾.. وما أوسع المسافة بين النظرية والتطبيق، وقد يكون من السهل أن يضع الإنسان آلاف الأفكار والنظريات والنصائح لكن الصعوبة الكبرى تكمن في تنفيذ هذه الأفكار، وترجمتها إلى واقع حي مؤثر..

وفي عصرنا الحاضر ندر المثال الصحيح للشخصية الإسلامية، فالعلماء على المنابر يصيحون ليل نهار، وأبواق الإذاعة والتليفزيون تصرخ بالقيم والآداب الإسلامية، وتقدم النصوص والمستندات على صدق قولها، والصفحات تسود بالعديد من البحوث والمقالات والأقاصيص عن الإسلام وعدل الإسلام، ولكننا لا نجد المجتمع المسلم ولا الشخصية

الإسلامية، بالصورة التي أرادها الله، ودعا إليها رسوله الكريم ﷺ..

إن آفة الإعلام الإسلامي تكمن في أن ما يقال منه يختلف تمامًا عن واقع المجتمع الذي يشهده المتلقي، والواقع الصارخ بالمخالفات الإسلامية، الغارق في متاهات البدع والسلوك المستورد، والأخلاقيات المستعارة.. هذا الواقع المشوّه يتناقض تناقضًا مريعًا مع كل ما يقال من وسائل الإعلام ومن فوق المنابر، ولذلك سرعان ما ينسى الناس ذلك الكلام، عندما يغوصون في أعماق المجتمع، ويندسُّون بين الجموع في الشوارع، حيث النساء كاسيات عاريات، وحيث المعاملات يشوبها الكذب والخداع، وحيث الكلمات البذيئة، والعبث واللهو، ولا يكاد يبقى من ذلك التصور الإسلامي شيء إذا ما ارتاد الناس دور الفن والغناء والطرب، وأحاديث المشاهير من النساء والرجال التي تفتح لها الصحف والمجلات صدورها..

هذا التناقض المريع.. أو هذا التمزق بين ما يقال عن الإسلام، وما نراه في الحياة العامة، قد أفسد الشخصية الإسلامية، وبالتالي لم نستطع بعث الحضارة الإسلامية.. وقد حدث هذا في غياب التخطيط الشامل لصنع الشخصية الإسلامية، فليس هناك إلزام من قبل السلطات لأي منحرف

كي يعود إلى الطريق الصحيح، وليس هناك تنسيق بين ما يقال هنا، ويقال هناك، أو يكتب على تلك الصفحات وما يكتب في غيرها، فبعد الحديث الديني مثلًا، قد يقدم المذيع أغنية خليعة، أو رقصة مثيرة، أو قصة سينمائية شاذة تمجد أفكارًا وتصرفات تتناقض تمام التناقض مع التصور الإسلامي للكون والحياة والناس.. وكذلك نرى طلبة العلم تحشى أدمغتهم بالنصوص الإسلامية المجردة أو الجامدة، وقد يأخذون هذه النصوص عن معلم لا يؤمن أصلًا بما يقول، ولكنه أوتي قدرًا من براعة الصنعة في العرض وتلقين الدروس، مع أن مظهره ومخبره يتنافى تمام المنافاة مع الآداب التي يلقنها الناشئة.. وهكذا أصبح تدريس التربية الإسلامية وظيفة محددة بمنهج، وأصبحت دروسه منفصلة عن باقي الدروس، وكأنه شيء غريب عن الحياة.. مع أن الإسلام هو حياتنا.. حياتنا حين نام ونصحو، وحين نأكل ونشرب، وحين ندرس العلوم العصرية وغير العصرية، وحين نمارس ألوان الفنون والرياضة، وحين نحارب أو نلجأ للسلم، وحين نخطط لاقتصادنا، ونصرف تجاراتنا، ونعقد صفقاتنا، وحين نلبس أزياءنا، ونستقبل ضيوفنا، ونتفاوض مع غيرنا، أو ننسق مواقفنا معهم، أو نتبادل معهم المنفعة والمعاهدات المختلفة..

أصبحنا نتكلم مع أبنائنا عن «العيب» ولا نتكلم عن «الحرام»، وشتان بين هذا وذاك، فالعيب قد يناقض العرف، أما الحرام فيناقض شريعة الله، ومن ثم كان اهتمامنا وتركيزنا على العرف أو الأوزان المستحدثة -برغم ما فيها من أخطاء- أكثر من اهتمامنا وتركيزنا على آداب ديننا وأوامره ونواهيه.. وبعد ذلك نأتي ونقول:

«أين الشخصية الإسلامية؟؟ وأين معالم الحضارة الإسلامية؟» إن الشخصية الإسلامية لا تأتي من فراغ، ولا تنبت في هذه التربة الفاسدة، ولا يمكن أن تنمو وتترعرع في هذا الهواء الفاسد، لأن غذاء الشخصية الإسلامية وريها من عناصر الكتاب، ومن ينبوع النبوة، ولا تستطيع أن تتنفس إلا في الأجواء النقية لاتي لم تلوثها البدع المستوردة، والأفكار الغازية، ووسائل التحريف والانحراف والضلال التي تكاتفت قوى الشر والبغي لحشوها، كي تقتل هذه الشخصية الفريدة أو تخنقها..

ومن ثم كان من الضروري أن تخضع وسائل الإعلام كافة لهيمنة الفكر الإسلامي والتخطيط للإسلام، وأن يقوم بالتنسيق فيها فئة من الرجال المؤمنين الواعين الذين يعرفون الإسلام معرفة جيدة، بالإضافة إلى إلمامهم بالوسائل الحديثة في الدراسة

والتخطيط والتربية والعلوم النفسية، ولا بد أن يكون هناك ترابط بين البرامج الدينية البحتة وغيرها من برامج الفنون والآداب والعلوم والدراما والأغاني وغيرها، حتى تكون تلك الفروع كلها دعامة للقيم الإسلامية الخالدة..

ولا بد من إعادة النظر في مناهج التعليم حتى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالفكر والسلوك والحياة..

ولا بدّ أولًا وأخيرًا أن نقف حراسًا على حدودنا حتى لا يتسلل جندي من الأعداء فحسب، بل حتى نرد كل غزو فكري، وكل ضلال عقائدي عن أجيالنا، ولا بد أن تؤدي السلطة دورها إلى جانب الدعاة المؤمنين.. بذلك تعود إلى الظهور شخصيتنا الإسلامية المفقودة..



واحة الاتحاد



هذا مجرد خطاب مفتوح.. ننشره في الضوء لكل من «يهمه الأمر» على امتداد رقعة العالم العربي والإسلامي.. أما من يهمهم الأمر في تلك الدنيا الفسيحة فهم الشباب الذين سيحملون المسؤولية الثقيلة في الغد القريب.. وهم أيضًا الكهول والشيوخ الذين يشاركون اليوم في صنع القرارات المصيرية كشعوب.. ثم هم أيضًا رجال الفكر والفن والعلم لأنهم قادة كل نهضة.. ثم إلى من يهمهم الأمر «بصفة رسمية» أصحاب الجلالة والسمو والفخامة في أرض الإسلام..

ماذا أريد أن أقول في هذا الخطاب المفتوح؟

أريد أن أتحدث عن الوطن.. والراية.. والرسالة.. قد يكون الكلام بديهيًا أو منطقيًا أو مقبولًا.. لكن القضية ليست قضية اقتناع فحسب.. فما أكثر الكلام المنطقي المعقول في عصرنا،

فالقضية الخطيرة التي تواجهنا اليوم ليست قضية أفكار.. ولكنها قضية «التزام وعمل» بالدرجة الأولى.. فهل ينكر أحد أن أمتنا تعبر مرحلة حرجة وخطيرة في تاريخها المعاصر؟ هل في الإمكان أن نتجاهل الحقيقة المرة وهي أن العدو -أيًا كان هذا العدو- يكتسب مواقع جديدة على حسابنا؟ وأخيرًا هل يتجاهل أحد أننا نعاني من بلبلة شديدة، وحيرة قاتلة، واضطراب بالغ، في أرجاء العالم الإسلامي كله؟

وسط هذا الطوفان الهادر من المشاكل والنكسات والقلق، وتنطلق أقلام بأفكار ساذجة غريبة.. بل مدمرة.. وتصوري أن تلك الأفكار الخطرة إنما هي سلاح غادر من أسلحة الأعداء، وإن تكلم بها، أو روّج لها إخوة لنا يعيشون بين أظهرنا..

وإلا فما معنى تلك الصيحات التي تدعو إلى «الإقليمية» كتّاب كثيرون باسم حرية الفكر، ينادون بالانعزالية والتقوقع والتركيز على المشاكل الداخلية الخاصة بكل قطر.. باسم المصلحة العامة تارة، وباسم الاستفادة من التجارب المريرة تارة أخرى.. وباسم العصرية أو التقدمية مرة ثالثة.. وهكذا يغلفون دعواتهم المشبوهة بادعاءات وألفاظ براقة..

إن أخوف ما أخافه أن يتعجل صناع القرارات السياسية في وضع خطط وبرامج وفلسفات متأثرة بالوضع الراهن، وما

شابه من غضب وتوتر وخلافات مرحلية وعواطف شخصية.. فنحن نعيش مرحلة قصيرة من عمر الزمن مهما كان طولها.. العقلاء وحدهم هم القادرون على كبح مشاعرهم في وقت الشدة أو الغضب .. والمخلصون وحدهم هم القادرون على إنكار ذواتهم، والنظر إلى بعيد.. إلى المستقبل.. وإلى الماضي أيضًا..

لم ننتصر على العدو حتى الآن ونحن متجمعون، فكيف تحقق أهدافنا إذا تفرقنا؟ ونحن اليوم في عالم «الكيانات الكبيرة» سواء أكانت كيانات سياسية أو اقتصادية أو عقائدية، ونحن لا نواجه اليوم إسرائيل وحدها، وإنما نواجه علاقات متشابكة معقدة، لكنها منظمة.. ونواجه فكرًا وفلسفة وفنًّا وسياسة واقتصادًا، جندها العدو لخدمة أهدافه ومخططاته..

لماذا لا نبحث لنا عن ملتقى فكري يجمعنا؟ ورحم الله شاعرنا الذي قال:

ولست أبغي سوى الإسلام لي وطنًا

الشام فيه ووادي النيل سيان

حتى إذا ذكر اسم الله في بلد

عددت أرجاءه من لب أوطاني

فالعقيدة هي وطننا، هي التي جمعتنا بعد شتات، وحققت لنا النصر بعد ضياع، ومكنّت لنا في الأرض، فنعم الناس بالعدل والحرية والإخاء، والعجيب أن إسرائيل فعلت ذلك.. إن أي يهودي في أية بقعة على الكرة الأرضية هو إسرائيلي.. لقد تعلموا من أجدادنا، عندما كانت دولة الإسلام دولة فكرية.. فكل حامل لراية التوحيد مواطن في تلك الدولة الشاسعة..

وقد ينبري لنا أحد الفلاسفة الذين يدّعون العصرية أو التقدمية أو العلمانية، ويقول لنا: كيف ذلك، وبيننا أديان أخرى غير الإسلام؟ وهذا سؤال مضحك، له بريق خداع، فالمعروف أن تواجد المسلمين كأقلية في أمريكا أو أوربا أو الصين أو الهند أو غيرها، لم يرغم شعوبها وحكامها على أن يتخذوا المنهج الإسلامي أسلوبًا في الحياة.. فلا يستطيع عاقل أن يقبل تعطيل مناهجنا العقائدية لمجرد وجود فئات غير مسلمة بيننا، ناهيك بما وضعه الإسلام من ضوابط وقوانين وآداب، تنظم العلاقات الإنسانية، والأحوال الشخصية بين المسلم وغير المسلم، بطريقة عادلة شهد لها الأعداء قبل الأصدقاء.

ذلك هو الوطن الذي نريد، الوطن الذي يمتد شمالًا وجنوبًا، وشرقًا وغربًا، الوطن الذي يعيش على أرضه ما يقرب من سبعمائة مليون مسلم، يملكون قدرًا ضخمًا من ثروات العالم

البترولية والمعدنية والزراعية والحيوانية، ويملكون مساحات هائلة من الأرض والبحار والأنهار والصحاري والجبال والآفاق الصالحة للملاحة الجوية.. ويحتلون مراكز إستراتيجية ممتازة.. ولا شك أن هذا التكامل الفريد من نوعه، يستطيع أن يحقق أكبر حشد الطاقات الإنسانية -مادية وروحية- في هذا العالم..

تصوروا.. لو تحقق الحلم، وتلاقى المؤمنون بشريعة الله، وساروا في زحف واحد، تخفق عليه راية واحدة هي راية «التوحيد» .. تصوروا.. ماذا يمكن أن يحدث؟ وأية قوة في الأرض يمكنها أن تغامر وتتصدى لهذه الحشود؟

إذا كان هناك من لا يصدق، فليقرأ معي تلك الكلمات من كتاب الله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:110]

هذا التميز الذي أنعم الله به على أمتنا، لم ينبع من إقليمية ضيقة، أو نزعة فكرية منحرفة، وإنما كان هذا التميز مرتبطًا بعقيدة الله، بالرسالة الخالدة التي جعلت هدفها تحرير الإنسان من الخوف والعبودية والضيق، ونشر الفضيلة والحب والخير والسلام بين البشر أجمعين، ومحاربة الفساد والانحلال والظلم والقهر في أي مكان، كل ذلك من أجل أن ينعم الناس بالسعادة

والأمن والرخاء.. ومن أجل أن نحقق الرسالة المنوطة بنا، والتي دعانا الله لحملها، ولست أتحدث من عالم الخيال والمثاليات المجرّدة.. فالتجربة واقعة، والتاريخ شاهد.. ولا جديد تحت الشمس..

إن المحن التي اجتاحت العالم الإسلامي في تاريخه الطويل، وما أكثرها، لم تنفرج أزماتها إلا في إطار هذا المفهوم.. فليقل فلاسفة العصر ما شاءوا.. وليقل دعاة العصرية والتقدمية (أعني الإقليمية) ما يريدون قوله، فهم يقعون في خطأ تاريخي لا يغتفر، ويجنون على شعوبهم ومستقبلها.. فالذئب لا يأكل إلا من الغنم القاصية.. وأي معركة في الدنيا لم تحسم إلا بشحذ الطاقات، ووضوح الهدف، وفي ظل القيم والمبادئ القوية، ولا خيار لدينا في اختيار العقيدة، فكوننا مسلمين جعلنا ملتزمين بالإسلام منهجًا وسلوكًا.. وبه بدأنا عصر أعظم وأعدل حضارة عرفها الإنسان.. وبه عشنا تاريخنا الطويل.. ثم فيه خلاصنا.. والذين أفلتوا من الالتزام الإسلامي أفرادًا أو شعوبًا- ليلحقوا بموكب العصر- لم يتحصلوا إلا على نفايات ومظاهر أو انتصارات شكلية تافهة، وإن كانت في الواقع خسرانًا كبيرًا، وتمييعًا لذاته وشخصيته وكيانه..

والمحن أمور طبيعية في حياة الأمم، فلا بد من العواصف والرعود والبراكين والطوفانات.. قد تكون ابتلاء من الله أو عقابًا، وقد تكون هزة عنيفة لتوقظ الغافلين، وتبعث النشاط والحيوية في الخاملين، وتجدد الفكر في العقول الراكدة.. المهم أن تصدق النوايا، ويستقر الإيمان، وأن نفي بعهدنا مع الله، ولنحذر أن تحرفنا النوازل عن الجادة، أو تبذر في نفوسنا بذور اليأس والملل، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب:23]

وبعد.. ليست هذه مجرد دعوة للخلاص من المآزق التاريخية التي تأخذ بخناقنا فحسب ولكنها أيضًا دعوة للحياة.. وصيحة للحرية.. وهل الحرية إلا تحرير النفس من الخوف والأكاذيب والأوهام، وتحرير العقل من الفلسفات المريضة، وأفكار الأنانية والتعصب الأعمى والتبعية والتقليد، وتحرير الجسد من النزوات الطائشة والرغبات الحرام؟؟ التحرير من ذل الحاجة، ورذيلة النفاق، وشهوة الطمع..

ثم لنضع الأمر أمام أبنائنا بوضوح وصدق.. ولنساعدهم على أن يؤمنوا بما نقول، فقد تستطيع هذه الأجيال أن تحقق ما لم

نستطع نحن أن نحققه، وليفهموا جيدًا معنى الوطن.. والرسالة.. والراية..

وهناك نقطة أخرى ترتبط بهذا الموضوع نفسه، وأعني بها أثر الفكر الإسلامي في النهضة العربية والإسلامية المعاصرة، إن حركات التحرير الكبرى في دول الشرق قد حمل لواءها فئة من كبار المفكرين المسلمين، ومن منا يجهل دور المفكر الكبير جمال الدين الأفغاني الذي كان لدعوته صدى بعيد المدى في بلدان كثيرة، وتتلمذ على يديه نخبة من المجاهدين الأحرار؟ ومن يستطيع أن ينكر دور الأستاذ محمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وعمر المختار، وهيئة علماء الجزائر، وقبل ذلك كله الدور الذي لعبه الأزهر في حركة اليقظة الكبرى إبان الحملة الفرنسية وأيام حكم محمد علي وبعده، بل ونجد أثر الفكر الإسلامي في ثورة 19 أيام سعد زغلول ومن قبله مصطفى كامل وعرابي وغيرهم.. ولم يكن ذلك حدث طارئ في النصف الأول من القرن العشرين، وإنما كان ذلك كله امتدادًا لموجات الزحف الإسلامي التي واجهت الحروب الصليبية الكثيفة المتتالية.. والتصدي لطوفان المغول، والصراعات القبلية والعنصرية التي كانت تطفو على السطح من آن لآخر. ثم ألم يكن الإسلام هو الذي وحّد الجزيرة العربية في مطلع الدعوة الإسلامية، وجعل

منها كيانًا واحدًا صلبًا استطاع أن ينشر نور العدل والحرية في العالم آنذاك، تحت راية المبادئ الإسلامية الخالدة .. لأن تلك المبادئ هي التي انصهرت في بوتقتها كل الألوان والأجناس واللغات «كلكم لآدم وآدم من تراب» وهكذا صنعت تلك الحضارة نوعًا من التناسق والانسجام والتميز، لا مثيل له في أية حضارة من الحضارات.

***

نحن في عالم اليوم



الحقيقة التي لا مراء فيها، هي أن العالم الإسلامي، ويدخل فيه ضمنًا العالم العربي، قد تشابهت علله ومآسيه، وأي شعب من شعوب الأمة الإسلامية يعاني من نفس المشاكل التي أخذت بخناق أي شعب آخر، وإن تفاوتت النسب، وتراوحت المستويات المادية والثقافية والاجتماعية بين الصعود والهبوط، ومع هذا التفاوت إلا أن الجميع يلتقون عند نقطة تكاد تكون واحدة، وهي الإحباط في مجابهة القوى الطامعة شرقًا وغربًا، وعدم القدرة على تحقيق نصر حاسم في معركة السياسة الخارجية.. ثم ذلك «الإزمان» المخيف لمرض الصهيونية الذي أصاب الجسد بالوهن والآلام، وأضنى النفس بجراح لا تندمل.. و«المصائب -كما يقال- يجمعن المصابين» .

وهناك سؤال مهم أحرى بأجيالنا -صانعة المستقبل- أن تدرك أبعاده ومراميه، هذا السؤال هو:

- كيف ينظر عالم اليوم إلى المسلمين؟؟ ثم، كيف ينظر المسلمون إلى غيرهم ممن يخالفونهم في المعتقد والجنس والمستوى الحضاري؟؟

إن محاولة الإجابة على هذا السؤال، قد توضح لنا «الموقف» الذي نعيشه، وتلقي الضوء على جانب من العلاقات الدولية التي نتأثر بها، وقد يساعدنا ذلك على إعادة النظر في الفلسفة التي تقوم عليها حياتنا، والتحركات الضرورية التي نحاول بها أن ننجو من ذلك «المأزق» التاريخي الذي ترك بصماته على أوضاعنا ونفسياتنا وأفكارنا..

ونستطيع أن نوجز نظرة العالم المعاصر إلينا في النقاط التالية:

أولًا: إن الشرق والغرب على السواء ينظر إلينا نظرة طمع وحقد وحسد باعتبار أن الله قد حبانا بثروات طبيعية هائلة، هذه الثروات هي الإغراء الذي سال من أجله لعاب الاستعمار في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين، وبسبب تلك الثروات، مضافًا إليها الموقع الاستراتيجي المهم والتكتلات العالمية، والصراعات الاقتصادية، أقول بسبب تلك الثروات وما جرّته من أطماع، وما تبع ذلك من ثورة صناعية حديثة، كان

من الضروري في حالة من الغفلة والترهل والتمزق تسمح لهؤلاء الطامعين باستنزاف ثرواتنا، ولن يتم ذلك إلا إذا تمزقت أواصرنا بماضينا وتراثنا، وأهملت المبادئ أو العقائد التي لا يمكن أن تنهض أمة من الأمم بدونها، وهكذا استطاع الأعداء أن يرسموا خططهم في براعة ودقة، وأن يتفقوا على «حد أدنى» من الوفاق فيما بينهم، برغم تعارض أهدافهم ومصالحهم، حتى نظل دائمًا في قبضتهم. لأننا -كما هو واضح- مصدر حياتهم ونهضتهم الصناعية. وأمنهم وقوتهم... ولعل بعض مفكرينا قد أدرك ذلك منذ البداية، إلا أن استجابة شعوبنا لصيحات التحذير كانت دون المستوى المطلوب بكثير..

ثانيًا: إن أشد ما يخشاه الطامعون فينا، أن تنطلق حركة بعث إسلامي، ترفع لواء المقاومة، وتغذي ملحمة الصراع الهائلة المنتظرة، وقد يظن البعض أن هذا التصور بعيد عن الواقع، أو أنه وهم وأحلام، لكننا لو تذكرنا تلك المحاضرة الشهيرة التي ألقاها رجل السياسة المعروف في البيت الأبيض أيام الرئيس «جونسون» في إحدى الجامعات الأمريكية، يقول «روستو» : «إن بقاء إسرائيل أمر حيوي، لأنها تقف سدًا منيعًا في وجه أي زحف إسلامي مرتقب، وبذلك لا نقاسي من حروب صليبية جديدة، ثم إن إسرائيل امتداد للحضارة المسيحية في الغرب..

(كذا)، إسرائيل الصهيونية التي تعتنق اليهودية، امتداد للحضارة المسيحية..

وقد نشرت هذه المحاضرة في إحدى المجلات الأمريكية الشهيرة، ومن أراد المزيد من التفاصيل عن هذه المحاضرة، فليرجع إلى كتاب «الله أو الدمار» لمؤلفه الأستاذ «سعد جمعة» رئيس وزراء الأردن الأسبق..

إن صانعي السياسة في الشرق والغرب - وغالبيتهم من الأساتذة المتخصصين في الدراسات الإنسانية والاقتصادية والسياسية - يدركون عن يقين، الباعث الأكبر لتحركات الشعوب الإسلامية في قديمها وحديثها، لكن هذه الحقيقة - للأسف- قد غابت عن غالبية مفكرينا وصانعي القرارات في الأمة الإسلامية..

وفي إيجاز، هم يعتقدون أن ضرب العقيدة الإسلامية، بشتى الوسائل والأساليب، هو الطريق إلى سيطرتهم علينا، واستغلالهم لثرواتنا.. هذا بالإضافة إلى «عقدة الصليبية» التي ما زالت مهيمنة على تصرفات الكثيرين منهم..

ثالثًا: والعدو يدرك أن لشعوبنا تطلعات وآمالًا وأهدافًا، وأننا نريد أن نعيش عصرنا بكل منجزاته وتطوراته، ولهذا كان

إدراكه لأبعاد هذه القضية الحساسة إدراكًا ينطوي على كثير من الخبث والدهاء، لقد أغرقنا بالسلع الاستهلاكية، وسمح لنا بالصناعات الخفيفة التي لا تؤثر في موازين القوى بيننا وبينه، وفتح لنا آفاق التعليم النظري، لتخريج طوائف من الموظفين المكتبيين، وعدد مناسب من المتخصصين في مجال الخدمات كالطب والهندسة والزراعة، ووضع حدودًا لتلك النهضة التعليمية، بينما وضع العديد من العقبات في مجال التصنيع والتكنولوجيا، حتى نظل دائمًا عالة عليه في احتياجاتنا للآلات الحديثة والسلاح، فلم يكن من المعقول أن يحيلنا إلى دول صناعية، تنافسه في الأسواق العالمية، وتسد الطريق أمام صادراته ونفوذه.. وهكذا أخذنا من الحضارة قشورها ومظاهرها ولم نتعمق جوهرها، أو نشيد الأسس الفعلية التي تنهض عليها..

رابعًا: لا يخفى على العدو أن «المثقفين» هم الفئة التي لها قوة التأثير الهائلة في مجتمعاتنا، سواء كانوا مثقفين تقليديين أو محدثين، ولذلك أغرقهم في المتاهات الفكرية، والتناحرات الحزبية، ولقنهم أن الحياة العصرية تتعارض مع المثل والقيم الروحية، وأن المادة هي أساس التطور والحضارة، وأن العلم الحديث، والفن الجديد هما جناحا التمدن والتحضر، ولا تنس

أن تتلمذ الرواد الأوائل على فلاسفة الغرب قد ترك أثرًا بعيد المدى في اتجاهات المفكرين لدينا، فلم يكن غريبًا أن يعلن الدكتور طه حسن في كتابه الشهير «مستقبل الثقافة...» : أننا لكي نتقدم وننهض لا بد أن نأخذ الحضارة الغربية بكل ما فيها.. ولم يكن غريبًا أيضًا أن يحمل «سلامة موسى» راية العلمانية، ومحاربة الأديان، كما أن عددًا من علماء الدين أنفسهم قد قدم وجهات نظر خاطئة وخطيرة تتعلق بالبناء الفكري للنظام الإسلامي وهل ينسى أحد ذلك الكتاب الشهير الذي ألفه خالد محمد خالد تحت عنوان «من هنا نبدأ» وكان له صدى كبير في مختلف الأوساط.. والعجيب أن خالد محمد خالد يأتي بعد ثلاثين عامًا، وينشر مقالًا في جريدة «الأخبار» القاهرية يعتذر فيه عن ذلك الكتاب، ويعترف صراحة أن الآراء التي وردت في كتابه، كانت نتيجة لتأثره بكتابات بعض المستشرقين..

لقد نجح العدو في حملة «التشكيك» الكبيرة التي شنها ضد مبادئنا وتاريخنا وتراثنا، والتي سماها البعض «بالغزو الفكري».. وفجأة نظرنا حولنا فإذا الفنون مستوردة السينما.. المسرح.. الأدب.. الرسم.. الشعر.. تلك الأدوات الفنية كلها غطت حياتنا بأساليبها الغربية الغريبة، وأثرت في سلوكنا ومناهج تفكيرنا وتقاليدنا تأثيرًا بالغ الخطورة.. حتى ملابسنا، وطراز

بناتنا، وأحاديثنا اليومية، والإتيكيت.. ومعاملة الأبناء والآباء والنساء.. وامتلأت مكتباتنا بمؤلفات مترجمة غربية وأمريكية عن العلاقات الجديدة، والزواج المثالي، وليلة الزفاف، وقصص ديكنز والبرتو مورافيا وفرانسوا ساجان وسارتر... حتى أعلام الفكر الإسلامي كابن سينا والغزالي وابن خلدون وغيرهم، أخذنا نحشو مؤلفاتنا عنهم بمنقولات من التحليل والدراسات الأجنبية المغرضة، وكأنهم «خامات» من المعادن استوردوها - أو أخذوها منا- ثم صدروها إلينا مصنّعة جاهزة.. ترى أي جهد يمكن بذله لتنقية ثقافاتنا وتراثنا الفكري من هذه الأخلاط الهائلة التي دخلت كل رأس، وسيطرت على كل بيت، وهيمنت على كل فكر.. إن حركة التحرير الكبرى يجب أن تنطلق من هنا.. لابد من تحرير تراثنا من كل ما شابه من أدران وأوشاب وسموم.. إنها جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد لأية دعوة وليدة، تريد أن تبعث بصحة الخلاص من القيود والأوهام..

وليس معنى كلماتي هو الرفض المطلق لكل جديد، أو التنكر لكل منجزات الحضارة، والانغلاق على نفوسنا، ولكن لنأخذ بحذر، ونطبق عن فهم، ولنناقش بحرية ووعي...

إن الضربات التي كيلت لحركات البعث الإسلامي ثبت بالدليل القاطع أن أصابع أجنبية كانت تعدها وتوجهها وتخطط

لها، وهذا أمر يحتاج -في وقت آخر- لتقديم الأدلة والبراهين والوثائق.

خامسًا: إن خطر «التجميع» الإسلامي يحمل أكبر تهديد للمخططات الصهيونية والاستعمارية، ولذا كان من الضروري أن يهتم واضعو تلك المخططات ببذر بذور الفتنة والشقاق بني الإخوة والأشقاء، ومن ثم بثوا شعارات الإقليمية والعنصرية، والتعصب الديني، ومشاكل الحدود، والنزاعات الحزبية والفكرية، ونشروا الإشاعات والدعاوى الكاذبة حو ل أية شخصية بارزة، أو أي تجمع مخلص، كي يلوثوا سمعته، فينفضّ الناس عنه، ومن استعصى أمره، فهناك التصفية الجسدية، أو النفسية، وهكذا أنهكت قوانا في تناحرات طائفية أو حزبية، وبددت إمكانياتنا الاقتصادية في حروب محلية تافهة، والعدو يقف بالمرصاد، ينتظر فرصة الانهيار فينقض بكل قوته، مدعمًا بالتأييد العالمي المشبوه، كي يضرب ضربته من آن لآخر.. لتلك الهزائم المتلاحقة، قد أورثت جيلنا العديد من صفات اليأس والألم واللامبالاة.. وكان طبيعيًا أن يكون ذلك الفساد طريقًا للشرور والضياع والملل.. ثم نظر المحايدون من شرفاء الرجال في أنحاء الأرض إلينا.. فماذا وجدوا؟؟ وجدوا التمزق والعشوائية والانفعالية والتشتت الفكري، والفلسفات

المتضاربة، والنكسات المتتالية، والسفه الاجتماعي والاقتصادي، وإلا هل في استطاعة أي رئيس من رؤساء الدول الأجنبية أن يتخذ منا موقفًا مضادًا، إذا علم أننا يد واحدة، وأن ضربتنا موجعة، وأنه سوف يخسر بسببنا أضعاف أضعاف ما يجنيه من عدونا؟

سادسًا: إن علام اليوم ينظر إلينا على أننا أمة لا تستطيع «توظيف» إمكانياتها.. وهذا حق، فإن لدينا الإمكانيات الهائلة التي يمكنها أن تقلب المواقف السياسية العالمية رأسًا على عقب، لكن «توظيف» الإمكانيات فن وعلم، ثم «عمل محسوب» بكل دقة ومهارة، فهل يستطيع العالم أن يعيش ويتحرك دون سمائنا وبحارنا؟؟ أيمكنه أن يستمر دون نفطنا ومعادننا؟؟ وهل تنتعش معاملاته التجارية والسياحية دون أسواقنا؟؟ وهل في إمكانه أن يتجاهل مئات الملايين من المسلمين المنتشرين في كل أرض؟؟ إن بضعة ملايين من الصهيونيين قد استطاعوا -فعلًا- أن يغيّروا سياسة أكبر الحكومات، بالتهديد تارة، وبالإغراء تارة أخرى، وبالإقناع بأن مصالح الكبار ترتبط بقولة إسرائيل وتأييدها تأييدًا مطلقًا.. بضعة ملايين من اليهود، في ظل فلسفة محكمة، وفي ظل عقيدة غريبة عفى عليها الزمن، ولغة منقرضة، وأفكار أسطورية خرافية، استطاعوا أن يصلوا مرحليًّا إلى أهدافهم.. المهم أنهم استطاعوا أن يفهموا العالم من حولهم، وأن

يدركوا أبعاد العلاقات الدولية المتشابكة، ومن ثم فهمهم العالم، أو خاف منهم، أو اقتنع بمنطقهم.. ومع هذه «الثقة» التي سادت بينهم وبين كبريات الدول، إلا أنهم حاولوا أن يمسكوا بأيديهم شيئًا آخر غير التأييد من القوى المؤثرة.. وأعني به قوتهم الذاتية.. أو الصناعية.. فدخلوا مجال التصنيع، وعلى رأسه السلاح.. حتى السلاح الذري..

فهل عالمنا الإسلامي الشاسع أقل مالًا أو عتادًا أو بشرًا أو أرضًا من هؤلاء الصهيونيين؟؟ وهل بلادنا عقمت عن إنجاب العقول والمهارات والكفاءات في كل مجال من مجالات الحياة؟؟ وهل العشوائية واللامبالاة والجهل والظلم والتحلل الديني هي قدرنا؟. ما أسهل الإجابة، وما أصعب التفيذ!!

يقول رسولنا ﷺ في حديث ما معناه **«تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسنتي»** .

كلمات معدودة لكنها جماع الخير والصدق والنجاة..

كلمات قليلة، صنعت أروع حضارة عرفها الإنسان عدلًا ونورًا وحرية.. ولا ملجأ من الله إلا إليه..

والآن.. هكذا نظر إلينا العالم.. ونحن؟؟ كيف ننظر إلى العالم وإلى أنفسنا؟؟ هذا ما سوف نحاول الإجابة عليه في الصفحات التالية إن شاء الله..

كيف حلّت الكارثة؟؟



كان قدر الأمة الإسلامية أن تقع فريسة الضعف والتخلف والجهل، وهذا ما أتاح الفرصة لقوى الاستعمار العسكري والاقتصادي والغزو الفكري أن تسيطر عليها، وتهيمن على مصائرها، وقد أوضحنا فيما سلف، كيف كانت تنظر تلك الجحافل الشريرة إلى الشعوب الإسلامية، والآن نحاول الإجابة على السؤال الآخر، كيف تشكلت نظرتنا إلى تلك الأمم الصناعية الكبرى التي قدمت لامتلاك مصائرنا، واستغلال ثرواتنا وإمكانياتنا، وكيف كانت نظرتنا إلى أنفسنا؟؟

تجارب مريرة:

إن شعوبنا كانت لها تجارب مريرة مع ما نسميه بالعالم المتقدم أو المتمدن، ففي البداية تصدينا لحركات الغزو الشامل بكل ما نستطيع من مقاومة وتضحية، على الرغم من قلة العتاد، والمال، والخبرة الحديثة، والفهم الشامل، لكن رد الفعل لدى العدو كان

عنيفًا رهيبًا، فسفك الدماء، وفرّق الجموع، وساق الأبطال إلى أعواد المشانق، أو زج بهم في ظلمات السجون، وحاربهم في أرزاقهم، وأملى عليهم شروطه، ومزق دولة الخلافة، وأحالنا إلى دويلات صغيرة شبه منعزلة، وداس على كل مقدسات الشرف والحرية والكرامة، والعجيب أننا عندما قرأنا تاريخ تلك الشعوب الغازية، وجدنا دساتيرها تحفل بالكثير عن الحريات العامة، وكرامة الإنسان، وعن العدالة والمساواة، والإخاء الشريف الذي يجمع الناس تحت لوائه، برغم اختلاف الألوان والعقائد، وكان البون شاسعًا بين ما نقرأه عنهم، وبين ما يفعلونه بنا، وما نعانيه من شقاء واستعباد ووحشية، حتى لكأن الحرية والعدل من حق شعوبهم، والعبودية والاستغلال والقهر من حق شعوبنا.. وإزاء هذا التناقض المريع.. كانت نظرة المسلمين إلى هؤلاء الغزاة نظرة حقد وغضب وسوء ظن، على طول الخط، وهذه نتيجة طبيعية لكل المقدمات التي سبقتها، غير أن مشاعر الحقد تلك لم تتبلور في حركة عقيدية موحدة شاملة، تنطلق في وعي وإدراك وتصميم.. بل تنوّعت المدارس الفكرية السياسية في كثير من الأحيان..

اتجاهات ثلاثة:

وظهر من المفكرين، بمرور الوقت، طائفة تقول: إن المعركة بيننا وبين العدو هي معركة بين الإسلام والصليبية المتعصبة،

واعتبرت الأمر جهادًا مقدسًا، أو فرضًا على كل مسلم. وكان هذا التفسير له خطورته الكبرى على مصالح الاستعمار، واستقراره في أرضنا. والحق يقال إن علماء الإسلام المخلصين وتلامذتهم والمؤيدين لهم، قد تصدوا في مختلف الأقطار الإسلامية لزحف الغرب ومكائده، فالثورات اندلعت من الأزهر تباعًا إبان الحملة الفرنسية وحملة فريزر ثم ما أتى بعدها من جيوش، كما تصدى الجيش الإسلامي في الهند للقوى الاستعمارية سنوات طويلة، وحدث نفس الشيء في السودان وليبيا والجزائر وعمان والعراق والشام والمغرب العربي وغيرها، ولا شك أن هذا التيار الديني لم يكن لديه شعار سوى الجهاد المقدس، ولم يفت النابهين منهم أن المعركة بالسلاح التقليدي غير كافية، ومن ثم كانت خطتهم هي العودة إلى منابع الدين، وتربية الأجيال على مبادئه السامية، والأخذ بقدر الاستطاعة بالأساليب المستحدثة في العلم والإعداد للمعركة، وترك ما عدا ذلك من «التقاليع والبدع» الغربية، التي تدمر الأخلاق والعقيدة.. هذا التيار لاقى الكثير من العنت والاضطهاد، لا من الغزاة وحدهم، ولكن من المعارضات المحلية، التي رمتهم بالجمود والرجعية في كثير من التصرفات والآراء.

أما الطائفة الثانية، فهي طائفة المنبهرين بالتفوق العلمي والتكنولوجي للغرب، وهؤلاء اقتنعوا بأن الطريقة الوحيدة

للخلاص هي الأخذ بكل ما في الغرب من نظم ومناهج، ومن ثم نستطيع -على المدى الطويل- أن نهزمه بنفس سلاحه، وأن قدراتنا الحالية غير كافية لتحقيق نصر حاسم في تلك المعركة الخطيرة غير المتكافئة، وكان الرأي عند هؤلاء هو عقد هدنه -ولو مرحلية- مع العدو، والاستفادة من علمه وخبراته، بل والتعاون معه، حتى يفيد ونستفيد، بدلًا من إنهاك قوانا في معارك غير مضمونة النتائج، وهؤلاء رحبوا بمعاهدات التحالف والصداقة الشكلية، واتخذوا الأنماط الغربية منهجًا وسلوكًا وفكرًا، بل وتمادى بعضهم في آرائه، ورمى ما عداها من الآراء بالتهور والجهل والخرق، وألصق بأصحابها تهمة الرجعية والجمود، وانبرى يهاجمها متخاصمة على الصعيد المحلي، واستطاع العدو أن يستغل هذه الفرصة، فغذى تلك الخلافات، وتحول المكافحون من معركتهم مع العدو إلى التصادم مع إخوانهم في العقيدة والوطن، وسكنت لغة المفرقعات والمدافع، وأصبحت الكلمات والتراشق بالألفاظ والشعارات هي السلاح الجديد.. وتطرف هؤلاء المنبهرين بالغرب ومنجزاته تطرفًا ربما يفوق ما أبداه أصحاب الاتجاه الأول من حماسة وتصلب.. أما الاتجاه الثالث فهم فئة المرتزقة.. عار كل عصر.. ووصمة كل شعب.. والمعوق لكل تحرر، وأعني بهم تلك الفئة التي ارتبطت مصالحها وحياتها ومصيرها ببقاء الأوضاع الاستعمارية كما هي،

لأن العدو أعطاهم المناصب والمال، وقدم لهم الحماية اللازمة، ووضعهم في القمة، كي يصنعوا القرارات التي تتفق وهواه، وفتح لهم أبوابه على مصارعها، وسودت صفحات الصحف والمجلات والكتب عن أمجادهم ووجاهتهم «وخدماتهم الوطنية الجليلة»، وأغدق عليهم الألقاب الفخمة، وجمع حولهم طائفة من المنتفعين أو ملتقطي الفتات المتساقط من الموائد، وأصبحت لهم الضياع والملايين والنفوذ، فساهموا في صنع الفكر المسموم، والفنون الزائفة، وجعلوا من الانحلال مدنية، ومن الفسوق والمروق حرية وعصرية، ومن الاحتكارات عصامية وتفوقًا اقتصاديًا..

وكان ذلك سببًا في انتهاك الدساتير المصطنعة القاصرة، وجرت إلى الكثير من الانحرافات والحركات السرية والاغتيالات، وإلى أساليب العنف غير المسئولة.. هذه الاتجاهات الثلاثة أفرزت صراعات وتناقضات مهولة، عطلت مسيرة الكفاح لسنوات طويلة، وبددت قوانا في متاهات مظلمة.

إن تلك النظرات المختلطة إلى العدو وتقييمه، خلقت رأيًا عامًا مهلهلًا، ووضعت بذور المدارس الفكرية الحديثة التي تلت ذلك من يمينية ويسارية وليبرالية وفوضوية، وشرقية وغربية..إلخ.

الوطنيون:

ونبع من ذلك كله ينبوع وطني يتفجر قوة وحماسة، هذا الاتجاه، نظر إلى الوضع القائم، وإلى الإمكانيات المتاحة، ومدى القدرة التي يمتلكها العدو، فحدد أهدافه في تخليص الوطن (القطر) من الاستعمار، ولم يركز إلا على «المشكلة السياسية» وحدها، ولا ننكر أن هذا الاتجاه، استطاع أن يستقطب حوله غالبية من أبناء كل دولة، ونحى جانبًا حقيقة «الكيان الإسلامي» الواحد، «الكيان العربي» الواحد.. مع أن جموع الشعوب كانت تحلم دائمًا باللقاء الإسلامي الكبير، وبالتضامن العربي القوي، ووجدت هذه الجموع من بعض المفكرين المخلصين، من يعبر عن أحلامها، ويواصل دعوته في شجاعة وإنكار ذات، على الرغم من المعاناة والاضطهاد الذي لاقاه، وكان التيار الوطني -برغم إخلاصه وحسن نواياه في كثير من الأحيان- تأكيدًا للحدود والفواصل والنعرات التي غذاها العدو، ولا ينفي هذا الاتهام، أن زعماء الحركة الوطنية، في أي قطر عربي أو إسلامي، قد شردوا ونفوا وسجنوا، ولاقوا الكثير من الأهوال، لأن العدو لم يكن يقصد من تمزيقنا إلا بقاء سيطرته، لكن هؤلاء الوطنيين، أرادوا بالفعل اجتثاث جذوره، وتحقيق الجلاء التام والحرية لشعوبهم.

ومن الأمانة أن نقرر أن هذا «التجمع الوطني» قد جذب إليه العديد من الشخصيات الإسلامية والمسيحية، ومن التقليديين والمحدثين، وبعض رجال الفكر والمال والأعمال، مما حقق له غالبية كبيرة، أمكنه من خلالها أن يعقد المعاهدات، ويصل إلى كراسي الحكم، وينال قدرًا من الحقوق استخلصها بإصراره وكفاحه من فم الأسد، برغم بقاء الكثير من الامتيازات الأجنبية، والقيود السياسية في علاقاتنا الدولية، وبعض القواعد العسكرية، والالتزامات التجارية والاستثمارية، واستغلال الثروات الطبيعية، هذا الأمر -وإن كان قد حل جانبًا من الإشكالات السياسية- إلا أنه أبقى الصورة الاجتماعية على ما هي عليه، أو أحدث فيها النعرات البرجوازية، ومن ثم لم يستطع الجمهور أن ينال العدالة الاجتماعية والسياسية التي كان يحلم بها.. ودخلنا عصر الأحزاب التي نبتت في ظل السيطرة الاستعمارية، وتفرعت عنها الصراعات والأنانية، وضياع الكفاءات، وصعود المهرجين السياسيين، وتفشت الرغبة الجامحة في الوصول إلى الرخاء المادي بأقصى سرعة، وبأي طريق، وانعكس ذلك كله على نظم التعليم والإعلام والفنون والمدارس الفكرية، ولم يكن هذا الاستقلال «الاسمي» أو الزائف إلا ستارًا يخفي وراءه العديد من الكوارث التاريخية.. وأبرزها مجيء «إسرائيل» على الساحة العربية والدولية..

الصدمة:

لم يكن مجيء الصهيونية للتمركز في أرضنا العربية حدثًا مفاجئًا وإن سبب لنا صدمة.. كان تمزق الصف العربي بفعل المكائد الاستعمارية منذرًا بما سيحدث، وكان الشتات الفكري عرضًا لمرض سرطاني خبيث، وكان التنكر للقيم الإسلامية الخالدة افتئاتًا على حق الله وحقنا في الحياة الشريفة الكريمة، وهنا أدرك الوطنيون في كل قطر ما وقعوا فيه من خطأ جسم، وانحسر الغطاء عن أعين السياسيين والمفكرين الضالين، لكنهم للأسف توهموا أنهم قادرون على إلقاء إسرائيل في البحر، وعندما رأوا أن الأمر جد لا هزل فيه، وأن القوى الاستعمارية الضالعة تؤازر إسرائيل، وتمدها بكل ما تحتاج إليه، وأن العون يأتيها من الشرق الأحمر والغرب المتحالف معنا سواء بسواء، أدرك عقلاؤهم أن الكارثة قد وقعت.. فارتفعت الأصوات يا عرب... يا أبناء الإسلام.. يا أحفاد أبي بكر وعمر وصلاح الدين.. يا...يا.. وأصبح اللقاء العربي والإسلامي ضرورة تفرضها الوقائع المريرة، وهبت الشعوب العربية ثائرة.. وهبت الأقلام، واستيقظت الجامعة العربية من غفوتها، وعقدت المؤتمرات، وكان الإجماع العربي في تلك الفترة «صورة مشرفة»، لكن كيف النصر، وقواعد العدو الاستعماري مازالت مرتكزة في بعض أقطارنا، وحليف إسرائيل هو الذي يبيع لنا السلاح؟؟

وبرز في هذا الوقت نداء الجهاد الإسلامي، وانطلقت القلة المؤمنة كمتطوعين، يبذلون النفس والنفيس في معركة من أقدس معارك التاريخ الإسلامي وأشرفها، ولقي هذا التيار المخلص الكثير من التأييد الشعبي في مختلف الأنحاء، وحقق بطولات لم يكشف عن أغلبها النقاب حتى الآن، وتلاحم أبناء مصر والجزيرة العربية والمغرب العربي والعراق والشام والسودان والأردن وغيرهم من الشعوب غير العربية، على ساحة المعركة، ألفة من نوع عجيب، ومن يريد المزيد فليرجع إلى مذكرات قادة الجيوش العربية الرسمية في تلك الفترة..

كان التيار الإسلامي دائمًا، يؤمن أنه لا أمل في وعود الأعداء أو إخلاصهم، إن الحل الأمثل هو العودة إلى كتاب الله وسنة نبيه، ورفع راية الجهاد المقدس، والاستعانة بالإمكانيات الحديثة في مجال العلم والتكنولوجيا، دون إهدار للقيم الروحية العريقة التي صنعت تاريخنا وحضارتنا، وجعلت من المبادئ الرائدة حقًّا مشاعًا لبني البشر أجمعين، قويهم وضعيفهم، أسودهم وأبيضهم، مسلمهم وصاحب أي دين آخر، ولم يجعل من تلك المبادئ حكرًا على شعب دون شعب، أو يجعلها حقًّا مكتسبًا للمنتصر وحده، وكان التيار الإسلامي -برغم ما لاقى من صعوبات وأهوال- واثقًا من نصر الله متى كان «الالتزام

الإسلامي» حقيقة واقعة ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ ﴾ [محمد:7] وكان الأمل - ومازال- في حشد إسلامي على امتداد رقعة العالم الإسلامي كله.

لكن، هل كان في الإمكان أن تترك الصهيونية والاستعمار والمطامع حركة المد الإسلامي الزاحف كي تؤدي دورها؟؟

وحتى لو لم يجب «رستو» رجل البيت الأبيض في عهد جونسون على هذا التساؤل فإن الجواب معروف سلفًا، لكل ذي عقل، أعني لكل ذي ضمير شريف.

***

حضارة الرحمن.. وحضارة الشيطان



زعم فلاسفة الإلحاد والمادية الجدلية، كما زعم غيرهم من الوجوديين وأتباع الفلسفة الوضعية، أن الأديان جاءت لزمان ومكان معينين، كغيرها من المذاهب الإصلاحية التي تذيع أفكارها في هذا القطر أو ذاك، كما عللوا ذلك بأن لكل عصر واقعه وظروفه الخاصة، وأوضاعه الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المتغيرة، وهذه العلل والأسباب كلمة حق أريد بها باطل كما سنرى، ومن ثم حصروا الأديان في حيز العلاقة بين الفرد وربه، وهكذا أصبحت مجرد صلوات تتلى، وطقوس تؤدى، ومناجاة قلبية، وأطلقوا عليها «الجانب الروحي» في حياة الإنسان، ولم يؤمنوا جميعًا بهذا التصور، فبعضهم رفض أيضًا ذلك الجانب الفردي -الإلهي، وجعل من العلم دين العصر الجديد، وجعل من العلماء أنبياء ورسلًا، أو كالأنبياء والرسل.. وقدموا الأدلة على تصوراتهم

المريضة تلك، وقالوا إن منجزات العصر الذي نعيش فيه أصدق برهان لما يقولون.. بل ووصفوا «الروح» بأنها انعكاسات لواقع مادي يؤثر في الكيان الإنساني ككل، مع أن ﴿... ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾..

وسوف أحاول مناقشة هذه القضية التي تبدو في ظاهرها عويصة معقدة، بقدر غير قليل من البساطة والوضوح، دون لجوء إلى مصطلحات غامضة، أو نظريات فلسفية صعبة، ويقيني أن أية دعوة لا تدخل إلى قلوب عموم الناس وعقولهم هي دعوة قاصرة، تنأى عن الواقع، وقديمًا قال رسول الله: «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم» لأن القضية أساسًا قضية هؤلاء الناس، وما يصلح حالهم، ويعالج عللهم النفسية والاجتماعية، ويرقى بمستوياتهم العقلية والروحية، ولن يحدث ذلك إلا إذا كان الطريق واضحًا، والعلاقة بين الداعية وجمهوره صريحة مستقيمة، متألقة بالصدق والوفاء والإخاء وقوة المنطق.. وما أكثر الدعوات التي نرى فيها فجوة سحيقة بين التنظير والتطبيق..

والآن ماذا كانت سمات الحضارة الإسلامية؟؟

ثم ما هي سمات الحضارة المعاصرة؟؟

وما هي العلاقة بين هذي وتلك وواقع الإنسان؟؟

كانت الحضارة الإسلامية ذات سمات عديدة، ترتبط بجعل الحياة الدنيا عالمًا من المحبة والسعادة والإخاء الإنساني، وربطت العمل الدنيوي بالجزاء الأخروي، ولم تنس الضوابط التي تحكم العلاقات الفردية والجماعية والدولية.

وأولى الأسس التي قامت عليها هذه الحضارة أنها ربانية.. فالله وحده هو المشرّع، انطلاقًا من أنه خالق الكون، وصاحب التصرف المطلق فيه، والخالق أدرى بطبيعة المخلوق عضويًّا وعقليًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا، وأدرى بما يصلح هذا الكون أو يفسده، وهو سبحانه يعلم أزلًا أن الإنسان مهما كانت قدراته الذهنية والجسدية، ومهما كانت مهاراته وإمكانياته، فلن يستطيع أن يتجاوز حدوده، ويفتئت على حقوق الله في التشريع والتقنين، ولو فعل الإنسان ذلك لكان مخطئًا في حق الله وحق نفسه، فالإنسان كائن محدود العمر، محدود التفكير، محدود القدرات، يتأثر عفويًّا بأهوائه ونزواته وبالأمراض التي تصيبه، والجو المحيط به، وحالات الفشل والنجاح التي تلازمه في حياته، والهرمونات التي قد تضطرب موازينها في جسده، فتغير من سلوكه وميوله، الإنسان متحيز بطبعه، أيًّا كان لون هذا التحيز ودرجته، وقد يصل ذلك التحيز لدرجة خطيرة من التعصب الأعمى.. أما الله سبحانه وتعالى فهو المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، العليم بظواهر الأمور وبواطنها،

علمه العظيم يغطي كل الأزمنة والأمكنة، ومن هنا أعطى نفسه حق التشريع، وهكذا نزلت الكتب السماوية، والشرائع الإلهية، وكان القرآن الرسالة الشاملة الكاملة إلى أهل الأرض قاطبة.. فهل يشك عاقل في هذا الأمر؟؟

وثاني الأسس التي قامت عليها حضارة الإسلام هي كما قال أمير الشعراء:

الله فــــوق الخلـــــق فيهـــــا وحـــــده
والنـــــاس تحـــــت لوائهـــــا أكفـــــاء
بنيـــت عـــلى التوحيـــد وهـــو عقيـــدة
نـــــادى بهـــــا ســـــقراط والقـــــدماء

ومن منطلق «التوحيد» قامت أمة واحدة، تربطها الأخوة والعدالة والمساواة، الله وحده هو الذي «لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون»، وهكذا سقطت كل أوثان الشرك والخوف والتميز العنصري أو الطبقي أو الاجتماعي، وإن لم تسقط المسؤوليات الملقاة على عاتق البشر، كل في موقعه، سواء أكان حاكمًا أو محكومًا، قائدًا أو جنديًا، عربيًا أو أعجميًا، قرشيًا أو حبشيًا «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها»، و«المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». فالتوحيد له أثره الكبير على الفرد والمجتمع،

إذ يضع الإطار الصحيح لأمه، يعتز أفرادها بكرامتهم وانتمائهم للعقيدة التي هي الرباط الأسمى الذي يربط بينهم، وهي الفيصل أو الحكم الذي يحكم علاقاتهم وفي إطار التوحيد حُفظت للفرد إرادته وحريته، وحُفظ للمجتمع كيانه الوثيق..

وثالث هذه الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، أن أمرهم شورى بينهم، وهو قاعدة عامة، كفلت حق أي فرد، مهما صغر شأنه، أن يدلي برأيه، وتقف امرأة وتعترض على رأي لعمر وهو أمير المؤمنين، فيتبين وجه الحق، ويرى أنها مصيبة، فلا تأخذه العزة بالإثم، بل ينصاع لأوامر الله، وللمبادئ التي رباه عليها الإسلام، ويعرف أنه بشر يخطئ ويصيب، وأنه وإن كان في قمة المسؤولية، فهو ملزم بأن يستمع لأي نقد، ويستجيب للنصح، فيهتف بأعلى صوته، وفي أقدس مكان، وأمام جموع المسلمين:

«أصابت امرأة وأخطأ عمر..».

ومن قبله يقول أبو بكر: «لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، الصدق أمانة، والكذب خيانة».

بل إن الحديث الصريح الموجه من الله سبحانه وتعالى لرسوله في كتابه الكريم، إذ يقول جلّ وعلا: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران:159] .

فهل في حضارتنا المعاصرة صورة أروع وأصدق وأكرم من تلك الصورة الخالدة؟

والأساس الرابع لهذه الحضارة هو احترامها للعلم والعلماء، وكان الأسير في أيام رسول الله يطلق سراحه إذا علّم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، وكان الأمراء والخلفاء والحكام يغدقون على المؤلفين والمصنفين، بل إن المترجمين من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية يجزل لهم العطاء، وتوزن مترجماتهم بالذهب، ولم تكن هناك أية قيود على البحوث العلمية، أو العلوم التجريبية، وبهذا أصبح للمسلمين الأوائل تراث ضخم في الرياضيات والطب والفلك والفيزياء والكيمياء والجغرافية والتاريخ والأدب وعلوم اللغة والفقه والتفسير والحديث، والفلسفة، وكانت هذه الفتوحات العلمية - بعد ترجمتها إلى اللغات الأوروبية - هي بداية النهضة العلمية هناك، ولذا نرى أن تراث الفكر الإسلامي لم ينغلق على نفسه، بل تآخى مع المعارف الإنسانية من كل صقع، فتألقت النهضة العلمية في العصر العباسي، وبلغت شأنًا عظيمًا..

والأساس الخامس لهذه الحضارة، أنها لم تفرض سلطانها على العالم المعاصر آنذاك بقوة السلاح والعدوان، بل بقوة العقيدة، وبالمثال الواقعي الفريد الذي قدمته للناس، فرأوا فيها روح العدالة والإخاء والحب، وكان عمر بن الخطاب يقول دائمًا

«تمنيت أن يكون بيني وبين الأعداء جبل من نار فلا يستطيعون عبوره، ولا أصل إليهم» ولقد كان واضحًا أن حروب المسلمين، إنما قامت لدفع عدوان واقع أو مرتقب، ولفتح الطريق أمام البشر كي يسمعوا دعوة الله.. ولهم بعد ذلك أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة:265]، ولم يفعل المسلمون ما فعلته الزحوف الحمراء حينما أزهقت أرواح الملايين الذين رفضوا اعتناق مذهبهم، وكتب التاريخ المعاصر مليئة بكثير من تلك المآسي..

وهكذا عاش ذوو الأديان الأخرى في كامل الحرية والأمان، بل إن بعض الخلفاء قد استوزرهم.. فانظروا اليوم ما كانت تفعله أوربا وآسيا وأميركا وألمانيا في الحروب التي اشتعلت في القرن العشرين وما قبله، وتذكروا عمليات الإبادة التي شنتها الصهيونية على شعب فلسطين.. والمجازر البشرية الرهيبة هنا وهناك.. أي فارق عظيم بين حضارة الرحمن.. وحضارة الشيطان..

والأساس السادس لحضارة الإسلام هو الهدف الذي ترمي إليه، إن الحضارة المعاصرة، تهدف إلى الرخاء المادي والسيطرة، واقتسام مناطق النفوذ، والتسابق في انتاج الأسلحة المدمرة، والعبث بمصالح الشعوب، من أجل أن يبقى الكبار أو القوى

العظمى في قمة الرخاء المادي والنفوذ، واستغلال ثروات الضعفاء ولو أدى ذلك إلى تمزيقهم أو إفقارهم أو إبادتهم.. أما حضارة الإسلام فكان رضاه الله هو الغاية، «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يريدها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»، ولذلك كانت الحرب في نظر الإسلام «جهادًا في سبيل الله» ولم تكن استعمارًا واستلابًا لحقوق الآخرين في الحياة الحرة الشريفة، ولم تغفل الغاية الربانية مطالب الحياة الدنيوية، يقول الله في كتابه العزيز: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:77].

وكان الأساس السابع لحضارة الإسلام هو العدل الاقتصادي، فالمال مال الله، ونحن مستخلفين فيه، أي وكلاء عن الله في إنفاقه في أوجه الخير والمنفعة، وسد احتياجات المحتاجين، واستثماره فيما يفيد، وحرّم الإسلام الاحتكار والاكتناز والجشع والربا، واستغلال الضعفاء، ووضع لذلك كله الضوابط لحدود، وفرض فرائض كالزكاة، وفتح الباب لكثير من التصرفات العادلة التي تهدف إلى التوازن الاجتماعي، وتحدّ من الصراع الطبقي، وتمكن للمحبة والتعاون والعطف والتراحم ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:7] ...

وكان الأساس السابع لهذه الحضارة هو «الالتزام» بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله من أحكام وشرائع وحدود وآداب، وكان ذلك الالتزام هو المحك الذي ينظر الناس من خلاله إلى الحكم على الأفراد ومدى صلاحيتهم أو فسادهم، سواء كانوا في القمة أو في عامة الناس.

وكان الأساس الثامن هو إقامة العلاقات الأسرية والاجتماعية في ظل مفهوم واضح ينظم الأحوال الشخصية والميراث والزواج والطلاق، والمعاملات المدنية والجنائية على نحو رائع لا لبس فيه ولا غموض ولا افتئات، وأعطى للمرأة مكانة لم تحظ بها في فلسفة قديمة أو حديثة، مراعيًا في ذلك طبيعتها العضوية والنفسية، ووظيفتها المقدسة في الحياة.

وكان الأساس التاسع لهذه الحضارة هو تقدير الفنون والآداب، وإحاطتها بسياج من العفة والصدق والحرية، بحيث تكون عامل بناء لا هدم، ودافع ارتقاء لا سقوط، وبذلك يتكون الوجدان الحي النابض بكل معاني النبل والإباء والرقة والتواضع والكرامة.

وكان الأساس العاشر هو واقعية المنهج، وهي واقعية من نوع فريد، واقعية لم تنحصر في بيئة من البيئات، أو زمان من الأزمنة، وإنما هي واقعية رحبة كبيرة تغطي، كل الأزمنة والأمكنة، وتستجيب لطبائع النفوس وتطوراتها وصعودها

وهبوطها، واقعية تنشد الصورة المثلى، أو الأمل الأرفع، كي يعيش الناس في رضى وسعادة، ولم تكن أبدًا ضيقة الأفق، أو معصوبة العينين، أو منكرة للتطورات التاريخية والاجتماعية والثقافية التي تسود الحياة عبر رحلة القرون.. ولقد كانت المدارس الفقهية والمذهبية في الإسلام صورة صادقة لتلك الواقعية المرنة، فكان الاجتهاد وكان القياس وكان الإجماع، وكان.. وكان، وكلها تنبع من المصدر الحي مدى العصور.. من كتاب الله وسنة رسوله، حيث لا ضرر ولا ضرار، وحيث الضرورات تبيح المحظورات، وحيث يكون واضحًا دائمًا، إيجاد المجتمع الصالح الملتزم، وحيث يكون الله دائمًا من وراء القصد..

وبعد.. هذا جزء من كل من سمات الحضارة الإسلامية..

بقدر ما سمح به المقام..

وأخيرًا...

ماذا في حضارتنا المعاصرة من أهداف؟؟

أتهدف إلى أكثر من ذلك؟؟

وهل استطاعت الفلسفة المعاصرة أن تحقق فعلًا ما دعت إليه قولًا؟؟

وهل مخاصمة الدين قد حققت السعادة والحرية والكرامة والرخاء للناس قاطبة؟؟

وهل يصدق أولئك المفكرون الذين يزعمون أن الحلول القديمة لا تواكب الحياة العصرية، ولا تلبي احتياجات الواقع؟؟

وأي قديم يقصدون؟؟

أليس الأمر كله مأساة.. مأساة القرن العشرين، الذي بهرته حضارة الشيطان.. فغفل عن حضارة الرحمن؟؟

ترى أي مصير ينتظر هذا العصر؟

***

جحافل الغزو الفكري



الغزو الفكري هو أقسى أنواع الغزو على مدار التاريخ، وهو أبعد مدى من الغزو العسكري، فالاحتلال بالقوة الحربية مرهون بالإمكانيات العسكرية التي يملكها الغزاة، ويرتبط بالتمزق والضعف الذي يعاني منه المعتدى عليه، ويعتمد في كثير من الأحيان على مراكز القوى العالمية، وما يطرأ عليها من ارتفاع أو انخفاض، ومن ثبات أو تحول، فإذا مال الميزان، أو تغيرت معدلات القوى وإمكانياتها، انهار الغزو العسكري على الفور، وقد يزول في أيام قلائل أو سنوات، حدث ذلك في موجات التتار والمغول وغيرهما.. ولذلك حاولت الزحوف الاستعمارية أن تربط وجودها بمؤثرات أخرى تجعل وجودها ضرورة ملحة، ومن ثم ربطت بقاء سلطانها ونفوذها بعدد من المصالح الاقتصادية، حتى تبقى الأرض المحتلة في حاجة إلى وجودهم، لكن الأخطر من ذلك

كله هو الغزو الفكري.. فقد يزول الاحتلال العسكري، وقد تنمحي التبعية الاقتصادية، لكن الذي يبقى أمده، ويطول تأثيره وفعاليته هو الغزو الفكري.. لأنه يسيطر على العقول والنفوس، ويهيمن على الأرواح والعادات ومناهج التفكير في الفن والسياسة والاقتصاد والتعليم، وهكذا تستطيع أمة من الأمم المتقدمة حضاريًّا أن تستعمر دولة من الدول، دون أن يكون لها قواعد عسكرية، أو ترسانات أسلحة..

ومن الملاحظ أن الدول التي أدركت أن الاحتلال العسكري وحده غير قادر على الحفاظ على مكاسبها، بادرت ببث طلائع الغزو الفكري على الفور، وأول شيء أدخلته إلى الدول المغلوبة على أمرها كانت الفنون وليس العلوم الحديثة..

فالفن بطبيعته مجاله الوجدان، والوجدان يؤثر في السلوك والعادات والاتجاهات الفكرية، والقيم الروحية، ويُظهر العلاقات الفردية والاجتماعية بصورة جديدة، قد تضاد تمامًا تراث المغلوبين ومبادئهم وعقائدهم السابقة، وهكذا جاءت في أذيال الغزاة صالات الرقص والموسيقى والتمثيل البذيء، وروايات الجنس والصراع الإنساني الشاذ، وأدب التمرد والسخرية من الأديان والقيم العالية. وجاءت صحافة الإغراء، ومطبوعات إشباع الغرائز، ونشر الفضائح، وأخيرًا السينما والمذياع وما لهما من تأثير بالغ الخطورة على الأجيال الجديدة،

وهكذا وفدت علينا فنون غريبة، ولدت وترعرعت في أرض غير أرضنا، وكان لنشوئها ظروف مغايرة تمامًا لظروفنا، ولم يكن لدينا في هذا الوقت الحصانة الكافية ضد هذه الأوبئة من الفنون والآداب، لقد سحرتنا بجمالها وطرافتها، ووجدناه فيها عالمًا مثيرًا من التسلية والجمال، والانفلات من القيود الأخلاقية التي يحلم بها دائمًا المراهقون والمحرومون..

نحن لا ننكر دور هذه الفنون والآداب وأهميتها في حركة التقدم الحضاري، لكننا نقول إن هذه الفنون تتركز على شيئين:

1- الشكل..

2- المضمون.

وكان من الضروري لنا أن نستفيد من هذه «الأشكال الفنية» الجديدة، ونضع في إطارها ما يتفق وتراثنا وقيمنا الروحية، ثم نرفض «المضامين الفكرية» الساقطة المدمرة، والأفكار العبثية أو المادية البحتة، والانحرافات الأخلاقية والنفسية، حتى نستطيع الحفاظ على شخصيتنا، كان يمكن أن نأخذ «الأشكال»، ونضع فيها «المضمون» الذي يناسبنا، ويساعد على التحرر والخلاص من أغلال الخوف والقهر والفقر والجهل، لكن للأسف بهرتنا البدع الجديدة المستوردة، فأخذناها بحذافيرها، بعد أن بهرنا التقدم العلمي وسلطان القوة التي يتزيا بهما المحتلون لأرضنا،

وكان طبيعيًا أن نقلدهم في أساليب حياتهم وتفكيرهم وسلوكهم.

ومن الإجحاف أن نزعم أن العدو حاول فقط أن يصبغنا بصبغته الفنية والاجتماعية وحدهما، لقد أدخل إلينا أيضًا العلم.. لكن أي علم؟؟ أدخل لنا العلم النظري، وحرمنا من التطبيق.. أو التكنولوجيا.. وهل للعلم قيمة دون تطبيق وممارسة؟؟ كما جعلنا العدو نحترم -أو نخاف القوة- التي يتمتع بها، وفي نفس الوقت لم يكن من المعقول أن يتركنا ننمو ونقوى..

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد سيطر المستعمرون على السياسة التعليمية عندنا، مثلما سيطروا من قبل على توجيه الاقتصاد والحكم والعلاقات الدولية، والعلاقات الاجتماعية، ومن ثم رسموا مناهج التعليم بطريقة خبيثة، تحقق أغراضهم في طمس الشخصية الإسلامية، وتغيير اتجاهاتها وأساليبها في الحياة، وعزفوا لهم على وتر «الحرية الشخصية»، والتخلص من كل قديم، والأخذ بكل حديث، والتركيز على المظهر دون الجوهر. فأصبحت «الشخصية الجديدة» لنا غريبة تائهة، بلا جذور تربطها بالواقع، ثم كانت هناك عملية الفصل بين التعليم الديني والتعليم المدني، ونحى عن التعليم الديني معظم العلوم

العصرية كالكيمياء والأحياء والفيزياء وغيرها مع أن علماءنا الأقدمين، كانوا يجمعون بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية، فجمعوا الفلك والرياضيات والطب والفلسفة وغيرها إلى الفقه والتفسير والنحو والصرف، وليس من رجال التربية والتعليم من يجهل سياسة «دنلوب» التعليمية، وما أثير حولها من نقاش وبحوث..

وعن طريق العدو القادم من الغرب والشرق انتقلت إلينا قضية لم يكن لها وجود في تراثنا أو حضارتنا الإسلامية، ألا وهي العداء بين الدين والعلم. لا شك أن صدامًا مروعًا قد وقع في أوربا بين العلم والدين، لدرجة أن الثورة الفرنسية كان شعارها «اشنقوا آخر ملك، بأمعاء آخر قسيس»، وأبعاد هذه القضية معروفة جدًّا للدارسين في أوربا، فعندما بدأت بشائر عصر النهضة أو النهضة العلمية في أوربا، وظهرت النظريات الجديدة التي تتحدث عن كروية الأرض ودورانها حول نفسها وقانون الجاذبية، وألوان الحكم المختلفة، ونظرياته المتباينة، وقف رجال الدين في أوروبا موقف المعارض للفكر الجديد على إطلاقه، فسيق العلماء والمفكرون إلى السجون أو الموت، بسبب إثباتهم دوران الأرض مثلًا، وقد كان لرجال الدين تصوراتهم أو معتقداتهم الخرافية حول الكثير من ظواهر الكون والطبيعة، ومن ثم حدث الصدام بين الفكر العلمي الجديد، والتصورات

القديمة، وكان صدامًا داميًا في كثير من الأحيان، وانعكس ذلك كله على الفكر والفن، وأصبح رجل الدين في أوربا رمزًا للجمود والقسوة والتخلف، لكن الصورة في الحضارة الإسلامية، وفي الفكر الإسلامي كانت مغايرة تمامًا، فلم نقرأ في كتب التاريخ أن المشانق قد نصبت لجابر بن حيان وهو يبحث في الكيمياء، أو لابن الهيثم وهو يضع النظريات الجديدة في علم الضوء، ولا لابن النفيس وهو يكتب عن الطب والأمراض، ولا للفلاسفة الذين ساحوا في آفاق الفكر الإنساني، كان الدين وعاء للعلوم الدينية والتجريبية والنظرية، ولهذا لم يحدث ذلك الانفصال بين العلم والدين، وبالتالي لم يكن هناك صدام مروع كالذي حدث في أوربا، بل إن علماء الدين -كما قلنا- في الشرق كانوا حملة الراية للتحرير والدعوة إلى الأخذ بالعلم الحديث، مع الاسترشاد بكتاب الله وسنة نبيه، حتى لا تنحرف الأجيال الجديدة عن الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان، وسخر له بسببها ما في الكون، وجعله عزيزًا كريمًا..

أقول تسلل إلى فكرنا وأدبنا صور شائنة عن رجل الدين الأوربي، وكان أن قلدنا الغربيين في هذه البدعة الخطرة، فرأينا رسوم «الكاريكاتير» تسخر من المتدينين، والمسرحيات والتمثيليات تجعل منه مثلًا للنفاق والرياء والتدليس، ووقع في هذا الخطأ بعض كتابنا الكبار في رواياتهم وقصصهم، ونسي

هؤلاء وهؤلاء أن القضية لدينا ليست على هذا النحو، وأن تقليد النماذج الأدبية، أو شخصيات الروايات كان عدوى من الآداب الغربية..

أنا لا أقول إن رجال الدين عندنا كانوا مُثلا عُليا في كل مكان وزمان، فلا بد أن يكون في كل طائفة بعض المرضى والشواذ، وهذا يحدث في كل جيل، لكن التصور العدائي بين العلم والدين لا يوجد له أي مبرر تاريخي أو واقعي في تراثنا وحضارتنا، فرجل الدين أو الداعية الإسلامي كان دائمًا عنوانًا للشجاعة والصدق، وكان سباقًا للجهاد والتضحية، وكان يواجه الحكام الظالمين، ويحذرهم من الخروج على دستور الله. وكان مشهودًا له بالعزة والكرامة، والعزوف عن مغريات الحياة، وكان العلماء أكثر قربًا من قلوب الشعوب، وهم أصحاب القيادة والرأي والتوجيه، ويوم أن اضمحل دورهم بعوامل الفساد، وظلم الساسة، ومكائد الاستعمار، فقدت القيم العليا للإنسان ينبوعًا زاخرًا للخير والصفاء والمحبة والعدل.. ويوم أن انصرف العلماء عن الجهاد والعمل الإيجابي، واعتزلوا المعترك، إيثارًا للسلامة، أو اتقاء للفتنة، أو يأسًا من التصدي لتيار الفساد الجارف، أو تجنبًا للضغط المادي والإرهاب المعنوي، يوم حدث ذلك.. كانت النكبة التي بددت الشمل، ومكنت العدو، فاستطاع الغزو الفكري أن يبسط سلطانه..

وللغزو الفكري أسلحته الفتاكة، وأساليبه الملعونة، فلنمسك مجلة من المجلات، أو صحيفة من الصحف العربية، ولندخل دارًا من دور السينما، أو نفتح مذياعًا أو تشاهد تليفزيونًا، فإلى جانب الأشياء المفيدة، والأخبار المهمة، نرى التراث الأجنبي بكل ما يحويه من قيم وأفكار، فالبطل طوال القصة السينمائية يتفنن في اصطياد المحصنات وغير المحصنات، ويبرع في تصويب بندقيته، ويبرز في مجال الكسب المادي، وأفلام مصاصي الدماء ورعاة البقر والهنود الحمر والرعب والجاسوسية تغطي على ما عداها من الأعمال القيمة ذات الفكر الأصيل، ثم ظهور فتى العصر، الذي يتمثل في الساخطين والرافضين والهيبيز والخنافس وغيرهم، ماذا تريد هذه الفنون والآداب أن تقول؟؟ وأية قيم تريد أن تبثها؟؟ وفنانونا وأدباؤنا يقلدون تلك الصور الزرية، وهذه الرؤى المريضة، ومن ثم أمكنهم أن يزيفوا واقعنا، ويهدموا شخصية المسلم المميزة، ويميعوا غاياته وآماله، وسادت الفردية، وسيطرت الأنانية، وأصبح المطمح والأمل، هو كسب مادي، أو حياة رغدة جافة، عارية من أشواق الروح، خاوية من كل ما يملأ القلب، ويشبع الوجدان، بالمعاني الرائعة، ورحم الله شاعر الإسلام الفيلسوف إقبال إذ قال:

يئســـت فـــلا أرجّـــي في أنـــاسٍ

لهـــم فـــن كفـــن الـــسامري [1]

ســـقاة في ربـــوع الـــشرق طـــافوا

عـــلى النـــدماء بالكـــأس الخَـــليّ

ســـحاب مـــا حـــوى برقًـــا قـــديمًا

ولـــيس لديـــه مـــن بـــرق فتـــي

هذا الغزو الفكري كان له -كما قلنا- أعمق الأثر في حياة شعوب العالم الإسلامي قاطبة، فاستوردوا المذاهب السياسية، وأصبحنا نجد أشباهًا لهتلر وموسوليني وستالين وغيرهم، كما انتقلت إلينا مناهج الاقتصاد المتضاربة، والمدارس الفنية المتنوعة، وأصبح العالم الإسلامي الذي كان يسوده نظام واحد، وعقيدة واحدة، وكتاب واحد، وإله واحد، أصبح هذا العالم صورة للتنوع والتضاد والتنافر لا مثيل لها، ففي كل بلد منهج للحكم، وفي كل شعب أسلوب للحياة الاجتماعية والاقتصادية، بل أصبح بعضها وكأنها أجزاء من أوروبا في الظاهر، بعد أن أخذت عن الحضارة قشورها، ومن العلم فتاته، ومن الفن أرذله، ومن الصناعة أتفهها، ويكفي تحضرًا أن نلوي الألسنة ببعض كلمات أجنبية، ونرتدي الميني جيب، وأحدث الموديلات

---

(1) هو السامري الذي عاصر سيدنا موسى.

للنساء، ويموت متفرج بالسكتة القلبية وهو يشاهد هدفًا في كرة القدم يدخل شباك ناديه، بينما لم تهتز شعرة في جسده لسقوط مدينة القدس، أو غزو أوجادين، أو الهجوم على إريتريا، أو مذابح المسلمين هنا وهناك، وأصبح ممثلو السينما وممثلاتها مُثلًا عُليا في سلوكهم وآرائهم والأزياء التي يرتدونها..

وإذا كان الغزو العسكري قد عانى الكثير من بطولاتنا وتضحياتنا إلا أن الغزو الفكري لم يجد إلا القلة القليلة التي واجهته عن وعي وبصيرة، وتصدت له في استماتة بالغة، وكم عانت هذه القلة القليلة من الاضطهاد والتشوية والنكران، هؤلاء هم الأبطال الحقيقيون الذين شردهم الاستعمار، وحاصرهم في كل أرض، ودبر لهم المكائد، بل لعلهم عانوا من أبناء جلدتهم أكثر مما عانوا من بطش الأجنبي..

والآن، لماذا لا تطلق صيحة التحرير الفكري اليوم، وننقي تراثنا وثقافاتنا وفننا من العناصر التي لوثته، لماذا لا نعيد تقييم قوانيننا ودساتيرنا وما داخل حياتنا الاجتماعية والاقتصادية؟؟

ولماذا لا نفسح الطريق أمام الأيدي المتوضئة، والفكر الإسلامي المستنير، كي يقوم بجملة التغيير الشاملة، فنحرر أنفسنا وبلادنا من الغزو الفكري الخطير؟؟

***

خيانات تاريخية.. وعلمية!!



ما قرأت دراسة من الدراسات في الفكر السياسي أو الاقتصادي أو الأيديولوجي في صحفنا أو كتبنا إلا وادعى كاتبوها، بأنهم يتخذون الأسلوب العلمي منهجًا، ويقيمون بنيانهم على أساس من المنطق، وكأنهم بذلك يريدون أن يوهموا القراء بأن ما يكتبونه هو الرأي الذي لا رأي بعده، وأنه لا مجال لمناقشتهم أو نقض النتائج التي توصلوا إليها، وهو إيحاء كاذب بأن ما يقولونه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. حاشا لله..

إن آفة الفكر في بلادنا اليوم هي وجود فئة من الكتاب تتحيز لأمر من الأمور، ثم تحاول أن تعتسف الدليل والبرهان على صدقه، ثم تقذف بنا تلك الفئة في متاهات التعريفات والمصطلحات، وتستعير الأقنعة، وتستورد القيم المهلهلة، وتبثها بين جيلنا، فلا تزيدنا إلا ضلالًا وهوانًا وحيرة، زاعمة – برغم ذلك– أنها تضع النقط فوق الحروف، وتحدد القضايا

تحديدًا علميًا سليمًا، وعلم الله، إنهم بذلك يخدمون مخططات العدو من حيث يشعرون أو لا يشعرون، ويمكنون للفرقة والشتات، ويمكنون للبلبة والشك والانحراف في مسيرتنا التاريخية الحاسمة، التي سوف تحدد مصيرنا إلى أجيال قادمة..

وعلى رأس هؤلاء الكتاب الدكتور لويس عوض، ففي أهرام 1978/5/11 يقول:

«.. القومية المحددة كلمة حديثة استخدمت لأول مرة عام 1978في قاموس اللغة الفرنسية.. وكلمة أمة أو قومية في اللغات الأوروبية قديمها وحديثها تتضمن دائمًا معنى وحدة العرف أو السلالة أو الجنس مهما كان مختلطًا..» وبعد شرح واستطراد يقول:

«لا نستطيع أن نتكلم اليوم عن الأمة العربية أو الوطن العربي إلا بعد زوال الحدود السياسية داخل العالم العربي، وقيام الدولة المركزية الواحدة، التي يحكمها دستور واحد، وقوانين واحدة، وتكون صاحبة سيادة لا تتجزأ، على كل أراضيها ومواطنيها، وهذا لا وجود له في الحاضر.. وذلك مجرد أمل عند البعض، ومن غير المعقول أن نستمر في التعامل مع الأحلام أو الأماني تعاملنا مع حقائق الواقع.. إذن فلا مجال للكلام بأي معنى علمي، وبأي معنى رسمي، عن الأمة العربية، وعن الوطن العربي..».

ثم يستمر في تصوراته قائلًا: «ومع ذلك فنحن نتحدث عنها (الأمة العربية) كأنها حقيقة واقعية، ونعلمها للتلاميذ في المدارس.. وهكذا نخلط الأماني بالواقع ونكذب على أنفسنا وعلى الغير..»، ويقول: «إن وحدة الثقافة (الدين واللغة.. إلخ) وحدها غير كافية لتأسيس القومية..».

إن الدكتور لويس عوض ينسى في طوفان «عنصريته» تلك الحقائق البديهية التي لا تحتاج إلى قواميس إنجليزية وفرنسية ولاتينية، وينسى أن دعوته إلى الانعزالية والتقوقع والشعوبية، هي نفس الدعوة التي أعلنتها إسرائيل، وروجت لها بعض الأقلام الأوروبية والأمريكية والروسية، حين قالت ليس هناك ما يسمى بالأمة العربية إنما مجموعة من الشعوب المختلفة في طبائعها وأهدافها ووسائلها، بل إنه في مقالته المتناقضة الأفكار يدعو إلى نفس الفكرة التي أعلنتها إسرائيل رسميًّا حينما طالب «موشه ديان» بذوبان الفلسطينيين في البلاد التي يعيشون فيها.. وينسى أن الأمة العربية حقيقة واقعة برغم الحدود والقيود والمستويات الثقافية والاقتصادية المتباينة، وهذا أمر واقع في الحياة العامة، في البلد الواحد، بل في الأسرة الواحدة، فاستقلال بعض أفراد الأسرة ببيت خاص، أو بتميز اقتصادي أو ثقافي، لا يعني بالضرورة انفصاله عن أسرته، وانشقاقه عليها..

أنا لا أدافع عن حقيقة وجود «الأمة العربية أو الوطن العربي»، وما أريد أن أقوله إن الكيان العربي موجود قبل أن تنشأ كلمة «القومية»، وأن الدولة العربية الواحدة، والأمة العربية، حقيقة تاريخية لا مراء فيها لمئات السنين، وأن التمزق الذي انتاب هذه الأمة لم يحدث إلا منذ فترة تقل عن مائة عام، وإن الحكم من خلال نكسة طارئة خلال القرن الماضي، لا يمكن أن تطمس حقيقة أربعة عشر قرنًا من الزمان، ألم أقل وكذلك العشرات من الكتاب المخلصين، إن الغزو الفكري والدهاء الصهيوني والصليبي والماركسي، كان أخطر على واقعنا ومستقبلنا من حملات الغزو العسكري الضاربة؟؟

يومًا ما حاول لويس عوض أن يشوه تاريخ الكفاح العربي، حينما جعل من الخونة أبطالًا إبان الثورة ضد الحملة الفرنسية، فقال إن «نقولًا بابا زغلو» الذي كوّن طائفة من المحاربين لمساعدة الفرنسيين، ومحاربة الأتراك، قال إنه من أبطال القومية، وكان قوله ذلك مثار سخرية وأسف في صفوف الكتاب والمفكرين، ويومًا آخر كان من فلاسفة القومية العربية، والدعوة العلمانية، وما أكثر المقالات الطوال التي نشرها، موجهًا سهامه المسمومة ضد القيم الروحية الأصيلة بدعوى القضاء على الجمود والرجعية والتخلف..

. أيها المنهج العلمي، كم باسمك ترتكب من جرائم وانحرافات وأباطيل!! أيتها الحرية، كم باسمك تغتال الحقائق الناصعة، وتخدع الأجيال البريئة، وتشنق أروع الآمال والأحلام!!

الدكتور لويس عوض ينكر وجود الأمة العربية والوطن العربي، في الوقت الذي يصبح فيه أي يهودي على سطح الكرة الأرضية إسرائيليًا، ومنتميًا للدولة الأم. التي لم يمر على إنشائها أكثر من ثلاثين عامًا.. ولويس عوض ينكر الكيان العربي الواحد في الوقت الذي ترى فيه الشيوعية الدولية كل مؤمن بمبادئها داخل في نطاق أمتها وكيانها، وتحارب من أجله، وتساوم على خلاصه، وتقدم له أقصى ما تستطيع من عون، ولا يرى لويس عوض في ذلك شططًا وخروجًا على المنهج العلمي الذي يزعمه ويتزيا بزيه..

وبعد.. إن ما يريده الإسلام ليس سيادة عرق على عرق، ولا سيطرة شعب على شعب آخر، ولا قوامة جنس على غيره من الأجناس، فكلكم لآدم، وآدم من تراب، والتميز الوحيد في ظل القيم الإسلامية، هو التقوى، هو العمل الصالح البناء، هو الخير الذي يعمّ بني البشر، ويضفي عليهم روح المحبة والإخاء والعدل والصدق، «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»،

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، والشيء الوحيد الذي يعتز به المسلم، ويفتخر به هي مجموعة القيم والمبادئ الأصلية.. هي الإسلام.. وفي الجاهلية في أي أرض كانت عنجهيات النسب والحسب هي المعايير التي ترفع من تشاء، وتهوي بمن تشاء، ولما جاء الإسلام، سقطت كل دعاوي العصبية «ليس منا من دعا إلى عصبية»، وانهارت عمد العنصرية، فلا أسود ولا أبيض، ولكن المرء بمثله وقيمه وعمله ونفعه في ضوء الهدي الإلهي «أطيعوا ولو أمِّر عليكم عبد حبشي»، ولذا كان سلمان الفارسي صحابيًا، وكان بلال الحبشي علمًا من أعلام الإسلام، وكان صهيب الرومي أخًا لرسول الله، كل هذا قبل أن تظهر القواميس التي أشار إليها الدكتور لويس عوض، وقبل أن يسمع أحد عن كلمة القومية بمواصفاتها العلمية، وتعريفها الدقيق!!

كان الإسلام هو الوطن والأمة، هو السياسة والاقتصاد والدستور، هو الفكر والفلسفة والأدب، هو الدنيا والآخرة، هو أخوة الحاكم والمحكوم، والغني والفقير، والجندي والقائد، والأبيض والأسود، بل والمسلم وغير المسلم، إن أعظم ما يحلم به فلاسفة الماضي والحاضر هو الإخاء الإنساني، هو الحب والتسامح بين البشر، تلك كانت الصورة الحضارية الفعلية التي أبدعتها الدعوة الإسلامية، والعجيب أن هذا ما تزعم الماركسية

أنها تدعو إليه، ودستور هيئة الأمم المتحدة ينص عليه، وقد سبق الإسلام تلك الدعوات الحديثة كلها بأربعة عشر قرنًا من الزمان، بل هو ما دعت إليه جميع الأديان السابقة قبل أن يشوبها الهوى والتحريف..

الواقع أن أي مفكر -بل أي قارئ- محايد يقرأ مثل تلك الدراسات الخبيثة، يشعر بالكثير من الاشمئزاز والأسف والحزن، وإني لأعجب أشد العجب كيف يمسك القانون بتلابيب لص يسرق ساعة أو بضعة جنيهات أو جرامات من الجواهر، ثم يترك مفكرًا يسفح دم الحقيقة والتاريخ، ويدوس القيم والمعاني الروحية، ويسرق من الناس مفاتيح الصدق والخير والخلاص والنجاة؟؟ وهل الحرية أن نلوث تاريخ أمة، ونقتل ضمير شعب أصيل، وندعو إلى الشعوبية والتقوقع والانعزال، والعدو خارج الحدود يحتل الأرض، وينهب الثروات، ويمكن لنفسه، ويحشد الملايين من كل فج؟؟

هل يتصور لويس عوض أنه بفلسفته تلك قادر على أن يجعل شعبًا ينتصر في معركته المصيرية؟؟ وكيف النصر بدون حشد شعوب الأمة، وبترولها ومعادنها وثرواتها وتكتلها في صعيد واحد؟؟ أم أنه يريد بطريقة ملفوفة أن ننعزل عن الأمة العربية والإسلامية، ثم نبحث لنا عن «كبير» أجنبي نحتمي في ظله، ونستلهم منه العون والحماية، وهو أعلم بما يفعله «كبراء» هذا

الزمان؟؟ أكاد أشك أن وراء هذه «الآراء الحرة» (!!) مؤامرة خسيسة لا يعلم سرها إلا الله..

في أوائل الستينات ظهرت مجلة مشبوهة اسمها «حوار» كانت تنشر باللغة العربية، وبلغات أخرى أوربية، وكان على رأس كتابها الدكتور لويس عوض، ولاحظنا أن هذه المجلة تعطي مكافآت كبيرة جدًا للكتاب، ودار حولها لغط كثير، ومن خلال الموضوعات التي تنشرها بالعربية، ثم المقالات المخالفة التي تنشرها باللغات الأخرى، أدركنا أن هذه المجلة تحركها أصابع الصهيونية، وامتنع عدد كبير من الكتاب الشرفاء عن الكتابة فيها، ودارت حولها معركة في الصحف والمجلات العربية، وانبرى لويس عوض يدافع عنها، ويتهم مهاجميها بالتحيز والجمود واللاعلمية... وأخيرًا عرفت الحقيقة على الملأ، كما عرف المسؤولون عنها، والموجهون لسياستها، والممولون لها، وكانت فضيحة كبرى.. وأخيرًا خرجت إحدى الصحف اليومية تحمل مقالًا للويس عوض يعتذر فيه عما بدر منه، ويأسف لاشتراكه في الكتابة لها.. هذا بعد أن انكشف الغطاء، وظهر المخبوء، ولم يعد هناك مجال التملص أو الدفاع، وكيف بعد أن أتضح فعلًا أن جهات صهيونية تصدرها، وتحشوها بالفكر المسموم، وتضربنا في أهم معاقلنا الفكرية والعقائدية..

أيضًا باسم العلم والمنهج العلمي وباسم الدراسات الجادة المخلصة، وباسم اللحاق بموكب الحضارة الحديثة، وعالم التكنولوجيا والاستنارة والحرية..

إن الفلسفات المعاصرة، كما نرى، قدمت صورة حضارية شوهاء، وامتلأت بالتناقض بين التنظير والتطبيق، فأي منطق وأي عدالة في الفلسفة التي قامت عليها إسرائيل؟ وأي عدل ومحبه وإنسانية، في البقاع التي سيطرت عليها المدرسة الماركسية، وهي تلتف حولنا، وتقدم لنا الدليل تلو الدليل على تحيزها وقسوتها ونفعيتها؟؟

وهل ننسى قصة الصومال وأريتريا والمهاجرين اليهود وما حدث في باكستان وأندونيسيا ودول أفريقيا وشرق أوربا وغيرها؟؟

وأي احترام لحقوق الإنسان ينبع من القرارات السياسية في أمريكا وأوربا؟؟ وأية فلسفة مهما كانت نوعيتها ومبادؤها وعظمة نصوصها؛ لا قيمة لها إلا بالترجمة الفعلية، وتحولها إلى واقع وسلوك سياسي واقتصادي، محصلتها النهائية في بذر بذور الشر أو الخير، وتحقيق السعادة أو الشقاء لبني البشر..

إزاء تلك التجارب المريرة، والنكسات المروعة التي ابتلينا بها، وتكالب قوى الشر علينا، فليس أمامنا سوى طريق واحد:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:١٠٨] ..

مبادئ.. إيمان.. فهم للدور المنوط بنا، فإذا نؤمن بكلمات الله، ونعمل على تحقيقها، فالويل الويل، وهيهات أن نخرج من الأزمات الآخذة بخناقنا، أو نستخلص حقوقنا من أيدي عدونا، ولنعلم أن «نقولا بابا زغلو» لم يحرر مصر والشام من أيدي نابليون وعساكره، وإنما فر معهم عند الجلاء، وأن الجزائريين الذين «تفرنسوا» لم يعوقوا مسيرة المليون شهيد، وأن «ابن جلوي» لم يستطع أن يعطل طوفان الزحف الحر في المغرب، إن فلاسفة الاستسلام والتمزق، لم ينالوا بغيتهم الشريرة في أي أرض يعيش فيها أقوام أحرار شرفاء. إن أبشع ما أخشاه، هو أن ينخدع شبابنا بهذه الدعوات المسمومة، التي تدعي زورًا إنها تبشر بعصر جديد، وتزوق المنى لحياة أوفر رخاء وعدلًا وسعادة، وتزعم أنها تنهج النهج العلمي السليم في تقويمها للأحداث التاريخية، والتحولات الاجتماعية والاقتصادية، وإذا كان لويس عوض وأمثاله يحملون لواء التبشير بدعوة جديدة، وأمل جديد، فليعلموا أن دعوتنا هي الإسلام.. وأن طريقنا هو الجهاد الأمثل، وأن عدتنا هي العلم الصحيح والإيمان الصادق.. وأن منابعنا هي تراثنا الأصيل،

وتجارب التاريخ الحية الطويلة، وأن الله من وراء القصد..
وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

[طه:111-112]

والسلام على من اتبع الهدى.

* * *

السماء السابعة.. واضطراب التصور الديني



الأمر الذي نريد أن نعالجه الآن بالغ الخطورة والحساسية.. بالغ الخطورة لأنه يتعلق بمفهوم الدينية، وبالغ الحساسية لأنه يرتبط بفن كاتب كبير لعله من عمالقة الرواية والقصة في عالمنا، ألا وهو الأستاذ نجيب محفوظ.. ولقد كنت وثيق الصلة بالأستاذ نجيب منذ أكثر من ثمانية عشر عامًا. ولا يشك أحد أنه قد ترك بصمات واضحة في أدب جيله والجيل الجديد، فهو من ناحية الشكل الفني، والمهارة التكنيكية واللغوية، وروعة التعبير، واختيار اللفظ المعبر، والحوار الحي، والديالوج المتدفق، هو في هذا كله لا يبارى لكن القضية تتعلق بالمضمون.. أو بالفكر الذي يحمله الوعاء الفني..

ولقد كان نجيب محفوظ كثير الإلحاح على قضية الإيمان بالله والغيبيات والقيم الروحية، يتعرض لها كثيرًا، ويناقشها من زوايا

عدة، لكن الأمر الذي لفت نظري في كثير من قصصه ورواياته أن فهمه لمجموع المبادئ التي تشكل عقيدة المسلم فهم مضطرب، فيه كثير من الحيرة والشتات، وبمعنى آخر فيه كثير من «الاجتهاد» الذي جانبه الصواب..

ولقد ازداد إيماني بهذا الرأي عندما قرأت قصته الأخيرة «السماء السابعة» التي نشرت في الأهرام.. واستطيع أن ألخص وجهة نظري في النقاط التالية:

أولًا - إن نجيب محفوظ مؤمن بالعالم الآخر.. هذا حق.. لكن ما هي الصورة التي يرى الناس عليها بعد موتهم في هذا العالم؟؟ إن تصور نجيب محفوظ هنا تصور غريب، لا يرتبط بالمفاهيم الدينية -الإسلامية بالذات- فهو يرى أن الموتى تلتقي أرواحهم في السماء الأولى للمحاكمة.. فمنهم من يحكم عليه بالبراءة، فيصعد إلى السماء الثانية، ومنهم من يحكم عليه بالإعدام، فيعود إلى الأرض في صورة شخص آخر لعله يستقيم ويحسن من سلوكه، وهذا يعني فكرة تناسخ الأرواح التي يؤمن بها بعض الهنود والصينيين وغيرهم في آسيا.. ومن الناس من يكون وسطًا بين الأمرين، فتعود روحه إلى الأرض تعمل «مرشدًا» لأحد الناس لعلها تنجح في مهمتها، فتعود إلى السماء الأولى، ثم تصعد إلى السماء الثانية.. وتطبيقًا لذلك فقد قرر

المؤلف، أن خالد بن الوليد وغاندي قد صعدا مباشرة بعد أن برئت ساحتهما.. وأن كارل ماركس قد عاد مرشدًا لمصطفى محمود، وجمال عبد الناصر مرشدًا للقذافي.. وأن ستالين قد أعيد إلى الأرض في صورة طاغية من طغاة الأحياء في القاهرة، بسبب قسوته وقتله للعمال بدلًا من أن يعلمهم ويربيهم.. إذن فكارل ماركس من الصالحين، وغاندي على قدم المساواة مع خالد بن الوليد.. ولو نظرنا إلى هذه الأحكام في ضوء الإسلام، والعقيدة التوحيدية لوجدنا في تصوراته خطأً جسيمًا.. لأن رفض ماركس مثلًا للأديان وفكرة الإله الواحد، واعتباره الأديان أفيونًا للشعوب أو مخدرًا لها. لأمكننا أن نصل إلى ذلك التصور الهش المضطرب للمفاهيم الدينية..

ويبدو أن نجيب محفوظ يرى أن الأديان المعروفة لا يوجد بينها فرق يذكر، كما يظن أن الماركسية والغاندية وغيرهما من الحركات «الإصلاحية» والفلسفية المعاصرة هي نوع آخر من الأديان، يضم إلى الأديان المعترف بها، وهذا التصور ماسوني قومي بشري بحت، يسقط عمليات التحريف والتشويه التي ابتليت بها العقائد الكثيرة... وقد يقول قائل إن الدين عند الله الإسلام وأن دعوة إبراهيم وموسى عيسى وغيرهم، في تصور العقيدة الإسلامية، هي إسلام أيضًا، والحق أن المسلم لا يكتمل

إسلامه إلا بالإيمان بجميع الأنبياء والرسل والكتب السماوية.. لكن أية كتب مثلًا؟؟ إنها الكتب التي لم تتناولها يد التحريف والتغيير والعبث.. فالتوراة الحقيقية قد فقدت.. ولا يستطيع أحد من الباحثين -حتى الأجانب- أن يجزم بأنها كانت بالغة العبرية، لأنها أنزلت على موسى في العصر الفرعوني في وقت سيادة اللغة الهيروغليفية. واليهود اخترعوا التلمود، وضعوه إلى كتبهم المقدسة، بعد أن صنعوا توراة جديدة على هوى أحبارهم، وقد أكد القرآن هذه المعاني كلها..

ثانيًا: إن نجيب محفوظ قد استقى الكثير من ثقافته المؤثرة على يد أستاذه سلامة موسى، ومعروف من هو سلامة موسى الذي شن حملة شعواء على الأديان -قاصدًا الدين الإسلامي بالذات- وهاجم اللغة العربية، وطالب باستخدام العامية، حتى يقطع صلتنا بتراثنا القديم الرائع وعلى رأسه القرآن الكريم والتراث الفقهي والحضاري، والواقع أن سلامة موسى كان ذا وجهين، وجه يعادي الدين، ووجه آخر خفي يؤكد على حفاظه على دينه، واهتمامه به، حتى أنه دفن في مقابر الصفوة الممتازة من رجال دينه.. ولا أقول إن نجيب محفوظ قد قطع صلته بالتراث الإسلامي، ولكن ما أقوله هو أن نجيب محفوظ كان معجبًا بكتابات المرحوم «علي عبد الرازق» صاحب كتاب «الإسلام وأصول الحكم» ذلك الكتاب الذي أثار ضجة في حينه،

واعترض علماء الأزهر، وكبار رجال الفكر الإسلامي على ما ورد فيه.. ولقد ثبت في ذهن نجيب محفوظ أن الرسالة جاءت لوقت معين، ولبت احتياجات واقعية تاريخية، مما يفهم منه أن عصرنا في حاجة إلى إيمان جديد، وفهم مستحدث للعلاقة بين الدين والحياة.. ولم يحاول نجيب محفوظ أن يفعل كما فعل توفيق الحكيم الذي درس الإسلام بعمق وروية، ووصل به الأمر إلى تصنيف كتاب جيد في تفسير القرآن.. نستطيع إذن أن نقول إن نجيب محفوظ لم يبذل الجهد الواجب في دراسة هذا الموضوع الخطير.. موضوع العقيدة، فجاءت أحكامه مهتزة مضطربة.

ثالثًا: لوحظ في محاكمة الموتى في السماء الأولى أنه لم يسأل أحد منهم عن الفرائض المختلفة التي كلف بها المؤمن، فلا شيء عن الصلاة والصوم والزكاة والتوحيد.. إلخ، الحساب منصبٌ فقط على مجابهة الفساد والظلم، وهذا جانب لا يمكن إنكاره، وما جاءت العبادات إلا طاعة لله، وترجمة لسلوك الفرد الذي يجب أن يتأثر بهذه العبادات أو الفرائض، وينقلها إلى تصرف وفعل في واقع الحياة.. ونجيب محفوظ بهذا الفهم يروج للفكرة القائلة بأنه لا يهم ما نؤمن به، المهم أن نسلك سلوكًا سويًا مفيدًا للناس، وبذلك ندخل الجنة، يستوي في ذلك كارل ماركس وغاندي وخالد بن الوليد وسعد زغلول وغيرهم، ولا أهمية بعد ذلك لتوحيد أو صلاة أو زكاة أو صوم على ما يبدو.

رابعًا: إذا كان لكل إنسان «قرين» كما ورد في القرآن، فإنه لم يقل أحد من العلماء أن هذا القرين هو روح أحد الموتى، وهذا «الاجتهاد» الوارد في قصة «السماء السابعة» لا يستند على أساس من العلم الديني أو التجريبي.

خامسًا: إن في الإسلام حدودًا منصوصًا عليها في الدنيا، وتوضيحًا لمرتكبي الكبائر وطريقة معاملتهم في الآخرة، بآيات ثابتة لا غموض فيها، ونجيب محفوظ يسقط هذه المقررات المؤكدة التي لا مجال فيها لتغيير أو تبديل، وتجاهل كاتبنا الكبير لهذه الأمور يحمل أكثر من علامة استفهام..

سادسًا: إن كثيرين من شباب العالم الإسلامي للأسف ليس لديهم التصور الكامل للبناء العقائدي الإسلامي، وحينما يقرأون قصصًا مثل قصة «السماء السابعة» لكاتب «مسلم» مثل نجيب محفوظ، فسوف يأخذون ما يكتبه مأخذ التصديق التام، ويظنون أنه هو الإسلام بعينه، ونحن نعلم أن من يقرأون لنجيب محفوظ، أو يشاهدون أعماله على شاشة السينما والتلفزيون، أكثر بكثير ممن يقرأون للعقاد وشيخ الأزهر وأبي الأعلى المودودي وأمير الشعراء وغيرهم.. ومن يدري؟؟ قد يأتي يوم يصبح فيه هذا التصور الخرافي أو الشاعري أو الأدبي للعقيدة هو الأساس لأجيال جديدة حرمت من ورود المنابع

الحقيقية للدين والفكر.. وما دام الملاحدة، ومنكرو الأديان- في تصور نجيب محفوظ- قد نجوا من الإدانة الصارمة، ونزلوا مرشدين إلى أرض الله فليفعل الناس ما شاءوا، وعليهم فقط أن يكونوا من ذوي الأخلاق الحسنة، ولا أهمية لشعائر أو فرائض أخرى نص عليها الدين الحنيف، ولتسقط كل الحواجز بين الدين الصحيح، وبين الأديان المحرفة المخترعة، وليسقط الفرق بين الدين واللادين، ما دام نجيب محفوظ يبشر بالسعادة الأبدية لمن البشرية حتى ولو كانوا بلا إله.. أعني سواء وحدوا.. أو ثلثوا.. أو كفروا أو آمنوا..

أليس عجيبًا ألا يرد اسم أحد من الأنبياء في السماء الأولى حتى أثناء المحاكمة؟؟ وبطبيعة الحال لسنا في موقف لنبين فيه العلاقة بين الفرائض والعبادات وبين السلوك الفردي، ولا العلاقة بين الشريعة السماوية وبين حركة المجتمع وسعادة البشر، ولن نتحدث عن الأهداف والوسائل في ظل المفاهيم الدينية. ولا عن التجربة الحضارية الرائدة التي تولدت عن العقيدة السليمة، فهذه كلها أمور كبيرة تحتاج إلى كتب ومجلدات.

وإذا كان نجيب محفوظ يريد أن يقدم «رسالة الغفران» الجديدة على غرار ما فعل أبو العلاء المعري، فعليه أن يلتزم على الأقل بما التزم به أبو العلاء في رسالته، لكن الأمر الذي يحتاج

إلى اهتمام هو أن نجيب محفوظ نفسه ما زال في حاجة ماسة إلى تحديد كثير من الأمور التي ترتبط باقتناعه الشخصي، وبعقيدته الإسلامية.. فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون ذلك «الثوب المرقع» من التصورات العقائدية هو الصورة المثلى لأزياء العصر.. اللّهم إلا إذا اعتبرنا موجة الهيبز والخنافس هي أرقى تصور لما يجب أن تكون عليه الفلسفات والعقائد المعاصرة..

مرة أخرى أرجو للأستاذ الصديق نجيب محفوظ -وقد تخطى الخامسة والستين من عمره المديد إن شاء الله - أن يعود إلى كتاب الله، ويدرسه دراسة متأنية عميقة، بصدق وعزيمة، وأن يحاول أن ينظر إلى الفلسفات التي تلقاها في كلية الآداب على ضوء جديد.. فهو يعلم قبل غيره، أن كثيرًا من هذه الفلسفات الوضعية قد اندثرت أو كادت.. وبعضها قد أصبح كالخرافات أمام منجزات العلم الحديث.. وأعتقد أن هذا الموضوع جدير بالنظر والحسم، لا من أجل نجيب محفوظ كشخص فنان مبدع، ولكن من أجل الأجيال الجديدة التي هي أمانة في أعناقنا..

نقطة أخيرة.. إن إيمان نجيب محفوظ بالعالم الآخر يعني إيمانه بالله على طريقته الخاصة، وكان أحرى بهذا الإيمان أن يكون في إطار ما أنزله الله على أنبيائه ورسله وما جاء في الكتب السماوية،

ففي العقيدة أمور محددة ثابتة لا مجال فيها لتغيير أو تبديل، وهذا ما نسميه بالجانب «الثابت»، وهناك مجالات أخرى يستطيع العقل البشري أن يصول فيها ويجول ويبدع، وهذه وتلك أشياء فرغ منها العلماء من قديم، ونص عليها بما لا يدع أي مجال للشك.. اللّهم إلا إذا تصورنا -وحاشا لله أن نتصور ذلك- أن البناء العقيدي الذي أنزله الخالق، في حاجة إلى ترميم أو إضافة أو نقصان من المخلوق.. فالخالق جل وعلا أدرى بما يصلح للمخلوق.. وكلما فهم المخلوق علاقته بالله، ومكانته في هذا الكون، والرسالة المنوطة به.. كلما عرف الطريق السليم، وسار على المنهج الصحيح.. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:108]

صدق الله العظيم

***

الشباب وأحلام الحرية..



إن «الحرية الحقيقية» هي المناخ الصحي الذي يتنفس فيه الشباب، ومن ثم تنمو أشرف القيم الإنسانية وأغلاها، وتبرز المواهب والكفاءات البناءة، فيولد جيل قوي يستطيع أن يؤدي واجبه نحو وطنه، ويحمل رسالة عقيدته في كل الأنحاء، ويحقق ما نحلم به من فوز وانتصار، لكن أية حرية نقصد؟ أهي حرية الانطلاق الأرعن، والانفلات من آداب القيم الروحية، والإقبال على مختلف الملذات والشهوات والممارسات الطائشة، والهروب من المسؤولية والانغماس في ماديات الحياة، وإهدار الارتباطات الأخوية المقدسة، والتسيب الكامل، باسم تحقيق الذات، والتخلص من عقد الكبت والخوف والشك والتردد؟؟

لا أعتقد أن ذلك يعني الحرية الحقيقية الصادقة، فالحرية في أي عصر، ولدى أية داعية، ومن صميم أية فلسفة، لا يمكن أن

تحمل هذا المعنى الفوضوي المدمر، وإلا انقلبت الحياة إلى سوق التخبط والعبث، وتحولت إلى غابة تنضح بالوحشية والصراع الدامي، وتصادم المصالح والأهواء والآداب العامة، والقيم السائدة..

فالحرية في أي مكان وزمان لها ضوابط، وتعني أن هناك حقوقًا وواجبات، وهو نوع من التكامل أو التوازن لا يمكن تجاهله، وإلا اضطربت مسيرة الإنسان، وتعطلت قافلة التقدم، وتصدع البنيان الاجتماعي والأخلاقي. وبتعبير آخر نقول إن الحرية الحقيقية هي الحرية المنظمة التي لها حدود متعارف عليها، وذلك من أجل مصلحة الفرد والمجتمع، ولقد تفاوتت مفاهيم الحرية بين المدارس الفلسفية المختلفة، لما تشتمل عليه من عقائد سياسية واقتصادية، فالماركسيون قد جعلوا مصلحة المجتمع فوق كل اعتبار، حتى ولو أهدروا بذلك حرية الفُرد، واليمين المتطرف قد أطلق العنان للحرية الفردية في مجالات السياسة والاقتصاد والأخلاق، ثم تراوحت المدارس الفكرية الأخرى بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، فنتج عن ذلك تصورات عديدة لمعنى الحرية، حتى في المجتمع الواحد.. والآن ماذا عن شبابنا والحرية في بلاد الإسلام العريضة؟؟

القضية هنا شاقة وعويصة لحد كبير، والشباب مظلوم مظلوم.. هذا ما أؤمن به أعمق الإيمان، ولقد كان من المفروض

أن يكون مفهوم الحرية لدى المسلمين واضحًا محددًا، من خلال كتاب الله وسنة نبيه، ومن تراث الحضارة ذات التاريخ الطويل الباهر، ومن خلال الممارسة الناجحة في أعظم عصور التاريخ الإنساني، لكن الخطأ الأكبر، أننا ابتعدنا عن مفهوم الحرية بمعناها الإسلامي، ووجدنا أنفسنا تائهين نتخبط في أرض الفلسفات الوافدة من الشرق والغرب، بل إننا قد نجد دولة من الدول الإسلامية قد اختطت لنفسها طريقًا في الفكر والسياسة والاقتصاد، وربت شبابها على ذلك، وجرعتهم فلسفتها من خلال المناهج الدراسية وأجهزة الإعلام المختلفة، وطاردت بعنف كل من يعارض أو يتخلى عن تلك الفلسفة، بل كل من يقف منها موقفًا سلبيًّا، كانت المطاردة من الشراسة والقسوة بشكل محزن.. لكن الذي يدعو إلى الدهشة والعجب أن تتحول تلك الدولة أو غيرها إلى النقيض لسبب من الأسباب، فتعادي خطها الأول، وتتخذ منهجًا فكريًّا جديدًا، وفلسفة مغايرة تمامًا، وتبدأ القصة من جديد، فنرى مطاردات جديدة لرجال الأمس، وترحيبًا شديدًا بأعداء الماضي، ثم تتكرر المأساة مرات ومرات، والشباب في هذه الأجواء العاصفة الغامضة، يتطوح يمينًا ويسارًا، ويدفع الثمن غاليًا، ويسقط بين براثن التمزق والضياع، ويختل توازنه الفكري دون ذنب جناه، ومن جراء تلك التحولات والصراعات العشواء، تتولد الجماعات «الرافضة»،

و«الخلايا المتطرفة»، و«الاتجاهات المنحرفة»، ويدفع الوطن هو الآخر الثمن غاليًا، فلا يستقيم لدى الشباب مفهوم من المفاهيم، ولا يعرف له طريقًا واضحًا بيِّن المعالم، فتتبدد قواه، ويضطرب عقله، وتعتل روحه، ويعجز عن أداء الرسالة المنوطة به، فتنبري الأقلام تهاجم الشباب، وتحلل الكارثة التي وقعت، وتنحو باللائمة على مناهج التعليم، وفلسفة الإعلام، والأجهزة الشبابية المختلفة.. وحق للشباب عندئذ أن يتمثل بقول شاعرنا القديم رحمه الله:

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا
ليوم كريهةٍ وسداد ثغرِ

وفي هذا التية المدلهم يبحث شبابنا لنفسه بنفسه عن طريق يسير فيه، وهو فقير في الخبرة والفكر والثقافة، ويطوع الأمور لهواه ومزاجه، ويسخط على واقع الحياة أمامه، ذلك الواقع المرير الذي ينضح بالإثم والكذب والنفاق، ويمتلئ بالمخالفات والأنانية والطمع، ويفتقد العدالة والحب والوضوح.. ونعود بعد ذلك نندب حظنا، ونبكي شبابنا، ونزعم أنه انحدر إلى مباذل السهر والخمر وإدمان المخدرات والانفلات من القيود الأخلاقية والدينية، وأهمل تثقيف نفسه، وتربيتها على الفضائل والجد والمثابرة والتضحية.. فهل شبابنا هو المسؤول عن ذلك أم أننا نحن المسؤولون عن هذه الكارثة؟؟

نحن الذين قطعنا عنه الورد الصافي، والمنهل العذب، فعانى من الظمأ الشديد، ثم مددنا إليه أيدينا بأكواب وأباريق ممتلئة بالماء العكر، مكتظة بكل أنواع الميكروبات والسموم، فيما نلاحقه به من فن موجَّه، وفكر متحيز مستورد، وفلسفات غريبة متناقضة، ونجعله يزرع في أرضنا بذورًا لا يمكن أن تمتد جذورها إلى بعيد، ولا تستطيع أن تمدنا بالثمر الذي نشاء.. إن شبابنا مظلوم بكل تأكيد، ونحن..وأنا.. وأنت.. وغيرنا.. كلنا مسؤولون عن هذا الظلم الفادح، فهل نغضب ونيأس حينما نرى شبابنا يفلت من إسار تلك الفلسفات العقيمة، ويرفض في عنف وغضب، وينضم إلى موكب الساخطين، وتجرفه التيارات المريضة، وخاصة تلك التي تشبع طموحه، وتملأ فراغه الفكري والديني، وترضي نزواته وتطلعاته التي لا بد لها أن تنطلق وتحقق ذاته؟؟

ألم أقل منذ البداية أن القضية عويصة وخطيرة، وتحتاج إلى عمل حاسم ننسى فيه مطامعنا الشخصية، وأهواءنا الحزبية، وانتماءاتنا السياسية، من أجل هذا الجيل والحفاظ عليه كثروة غالية، ون أجل حماية الوطن من الضياع والانهيار والتمزق؟؟

وعلاج هذه العلة المأساوية في شيء واحد.. ذلك هو العودة إلى الله وإلى كتابه.. إلى الحرية الحقيقية المنظمة التي رسمت

حدودها يد القدرة الإلهية، تلك الحرية التي جعلت من الفرد والمجتمع شيئًا واحدًا، وكيانًا متكاملًا، بحيث لا يطغى طرف على طرف، فحرية الفرد لا تعني سحق المجتمع واستغلال الآخرين، وإهدار حقوقهم، ومصلحة المجتمع لا تتحقق بقهر الفرد وإذلاله، وسوقه سوقًا إلى امتصاص جهوده، وكبت مشاعره، وربطه بعجلة الرغبات العليا لصانعي القرار.. هي حرية يعرف الفرد فيها ما عليه من حقوق، وما له من واجبات في ظل التنظيم الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نعم...لأن لله حقوقًا يجب أن تؤدى، وللناس حقوقًا لا بد من الوفاء بها، ولنفسك عليك حقوق لا يصح أن تتجاهلها، ويضم ذلك كله نسيج ضام من الألفة والمحبة والإخاء والعدالة والمساواة، هذه الحرية لا تجعل من الحكام أنصاف آلهة أو ظلالًا لله في الأرض، وإنما تنظر إليهم على أنهم بشر يصيبون ويخطئون ويخضعون للنقد والنصيحة والتوجيه، وفي تصوري أن قضية «الالتزام» الإسلامي، هي القضية الأولى بالنسبة للعالم الإسلامي في هذا العصر، بل وفي غيره من العصور، وإن معاركنا المصيرية ترتبط بهذا الالتزام ارتباطًا وثيقًا، وتتجاوب به صعودًا وهبوطًا، ونصرًا وهزيمة.. وعندما يعيش شبابنا هذا الالتزام أو يعايشه، فإن الكثير من مشاكله وانحرافاته سوف

تتضح أبعادها، وتجد الحلول المناسبة لها.. ويمكننا أن نقول إن شبابنا قد عرف بداية الطريق عن وعي وبصيرة وإيمان..

وشبابنا لا يريد منا مزيدًا من النصائح بقدر ما يريد ممارسات عملية، عن طريق سلوك واقعي يراه ويلمسه ويقتدي به، عندئذ لا نرى شبابنا يبحثون عن انتماءات خارجية، ولا يعتصمون بفلسفات مريضة مستوردة، ولا يهتمون بالشكل دون الجوهر، ولا يهربون إلى دول أجنبية بإخلاصهم وذكائهم ومنجزاتهم العلمية الباهرة، بعد أن فقدوا الحرية في أرض الإسلام، ويئسوا من الحصول على الموقع المناسب لهم في الحياة العملية، وبعد أن قاسوا مرارة الذل والاضطهاد بسبب رأي ارتأوه، أو موقف من المواقف اتخذوه، أو رفض لصورة من صور الانحراف والمهانة ليس فيها مصلحة عامة مقنعة..

إن المقاييس الإسلامية هي وحدها القادرة على تقييم الرجال، لأنها لا تعرف التحيز أو المجاملة، ولا ترتبط أحكامها بصغير ولا كبير، أو حاكم ومحكوم، وإنما ترتبط بالالتزام الإسلامي وحده، وفي ذلك خير الدنيا والآخرة وسعادة للفرد والمجتمع.. لكن بقيت كلمة أسوقها لشبابنا..

إن موقف السخط أو الرفض لا يصح أن يجركم إلى اليأس والارتماء في أحضان الضياع والانحراف.. أنتم مسؤولون

أيضًا.. مسؤولون بما وهبكم الله من فكر، وبما منحكم من قدرة على النظر في الأمور، والبحث عن الذات الإسلامية، فهناك العديد من الدراسات الحديثة والقديمة في عالمنا الإسلامي، بل هناك من كتبوا عن الإسلام في أوربا وأمريكا بروح منصفة محايدة، فلا يصح أن يصدر الشباب أحكامهم في قضية بلادهم من خلال تصوراتهم الخانقة، بل لا بد من الإلمام بأطراف القضية، عن طريق الاطلاع والدراسات المقارنة، لأن أكبر خدعة ممكن أن تسقطوا فيها، هو الاكتفاء بسماع طرف واحد في قضية خطيرة كقضيتنا، وحاولوا جهدكم، أن تبحثوا عن جذوركم الحقيقية، وعن انتماءاتكم السليمة، وأن تستشعروا المسئولية الضخمة الملقاة على عاتقكم..

وثقوا -أيها الشباب- أن أية معركة لن تحقق النصر إلا بكم، وأي تقدم علمي أو اقتصادي أو سياسي لن يكون له وجود واستمرار إلا بما تبذلونه من جهد مخلص، فأنتم الرجاء والأمل، وأنتم العدد والعدة، وأنتم الماضي والحاضر و المستقبل.. ولن تستطيعوا أن تقوموا بهذا الواجب المقدس إلا في ظل الاستقرار والتوازن النفسي والفكري، وهما لن يتحققا إلا بالعودة إلى عقيدتكم العظيمة.. ورحم الله شاعرنا الكبير إذ يقول:

قل للشباب مقال صدقٍ واقتصد

ذرع الشباب يضيق بالنصّاحِ

أنـــتم بنـــو اليـــوم العـــصيب نـــشأتمو
في عـــصف أنـــواه، وهـــوج ريـــاحِ
ورأيـــتم الـــوطن المحطّـــم صـــخرٌ
للنائبـــات وســـيلها المجتـــاحِ

والسلام على من اتبع الهدى.

***

أوهام الفن.. وتربية الجيل



يلعب الفن دورًا رئيسيًا في تشكيل أخلاقيات الشباب، ونظرتهم إلى الحياة والناس، وحكمهم على الأوضاع الراهنة، والمستقبل أيضًا، وتقف السينما في مقدمة أدوات التأثير الجماهيرية، وكذلك الفن التمثيلي عمومًا، وقد يكون هذا التأثير أعمق أثرًا، وأبعد مدى من مناهج التربية والتعليم، بل ربما يحدث بين الاثنين نوع من التناقض أو التضاد، وذلك لغياب الخطة الشاملة الخاصة بتربية الجيل، وتوجيهه الوجهة الصحيحة، ومن ثم أصبح رجال التربية والتعليم في واد، ورجال الفن في واد آخر، والمعروف أن الفن مزود بمغريات ومشهيات كثيرة، تجعل الإقبال عليه أكثر، والتأثر به أكبر.

هذا الحكم العام الذي نقرره لا يعني اتهام الفن اتهامًا مطلقًا، وإدانته في موجات التحلل والانحراف، ففي الفن يختلط الجيد بالرديء، والمفيد بالضار، والحقائق الصادقة بالترهات الخادعة، ويمتزج السم بالدسم..

والفن التمثيلي يمدنا بالكثير من المتعة والترفيه والتوجيه، وقد أصبح عنصرًا أساسيًا في برامج الإذاعة والتلفزيون، فضلًا عن تفرده في دور السينما والمسارح، لكن هذا الفن الجميل قد خضع لعديد من الظروف والاعتبارات المختلفة، فالناحية التجارية قد أخضعت القصة السينمائية لشروطها من حيث اختيار الموضوع، وطريقة الأداء، وتلبية الغرائز والأحلام، وما يتبع ذلك من إثارة وتشويق ومفاجآت، مهما تعارض ذلك مع القيم المتعارف عليها، والأخلاقيات الأصيلة التي هي جزء من تاريخنا وتراثنا وحضارتنا.

إننا نرى مثلًا أن «قداسة الأسرة» المسلمة، قد تعرضت لهجمة شرسة من الفلسفات والتصورات الغربية، أغلبها وافد من الفكر الغربي المتحلل، فالزوجة التي تخون زوجها، وتهمل أبناءها، وتهجر بيتها، استجابة لنزوات طارئة، أو بحجة الحرية في اختيار «حبيب القلب»، لأسباب تافهة غير مقنعة، والتمرد الأرعن على القيم والتقاليد، بحجة التجديد والعصرية والتحرر، وإهمال الشعائر والآداب الدينية، باعتبارها تخلفًا

ورجعية، والانسياق وراء العبث واللهو والخمر والسهر ومطاردة النساء، والصراع الأحمق الوحشي من أجل الكسب المادي، كل ذلك قد أدخل إلى حياتنا ألوانًا شاذة من السلوك والتصورات تحمل الكثير من الأضرار، وتساعد على تمييع شخصيتنا، والقضاء على التميز والتفرد الخاص برجالنا ونسائنا..

وليت الأمر وقف عند هذا الحد في استعارة أوجه الحياة الغربية من الفنون الأجنبية، بل إن بعض أعمالنا الفنية الملتزمة بقضايانا وتقاليدنا ونظرتنا الخاصة للحياة، قد شوهت تمامًا، على أيدي نفر منا، عندما تحولت إلى أعمال تمثيلية أو مسرحية، وإني لأذكر تلك الرواية التي كتبتها منذ ما يقرب من أربعة عشر عامًا، وهي قصة «الذين يحترقون»، لقد صورت بطل القصة بصورة تجعل منه طبيبًا مؤمنًا بالله وبحقوق الجماهير المغلوبة على أمرها، وأخذ هذا البطل يصارع قوى الفساد والشر، عن إيمان بالله لا يتزعزع، وثقة كبيرة لا تضعف. كما كنت حريصًا على جعله يظهر بصورة الرجل الذي يلتحم بالناس في المجتمعات والمساجد، ويلقي الضوء على حقيقة مشاكلهم، ويخرجهم من استسلامهم وسلبيتهم ويأسهم، إلى حياة تنبض بالصدق والأمانة والقوة والكرامة، ويستشهد في أحاديثه بمقتطفات من التراث الديني والأخلاقي.. ولقد فوجئت عندما أعدت هذه

الرواية كمسلسل تليفزيوني، بأن الذي أعدها قد أهمل الكثير من هذه السمات الأصلية والحيوية للشخصية، ورأيته يقدم نموذجًا للبطل كتلك النماذج التي يمكن أن نراها في أرض سوفيتية أو أوربية، بل إنه يتمثل في أحاديثه بكلمات لفلاسفة آخرين، ينظرون إلى الأمر نظرة دنيوية بحته، ونسي المعد أو تناسى ذلك الخيط الدقيق الذي يربط دنيا البطل بأخراه، ويجمع بين الدين والحياة، وتجاهل النبع الإلهي الرقراق الذي يمد قلوبنا وعقولنا بالطاقة السحرية الهائلة، التي تجعلنا نمضي في المعركة أعزاء أقوياء، لا نقصد إلا وجه الله الكريم..

وما أكثر الشباب والشابات الذين يأخذون مثلهم العليا من فن السينما والمسرح والتمثيل، إنهم يرون الأبطال، وهم يتحركون على الشاشة أو على خشبة المسرح، وحياتهم كلها ملذات ونزوات أو ما يسمونه خطأ بالحب، ويرونهم يرتدون أفخر الثياب، وأحلى الجواهر، ويحققون ما يريدون، فيظن شبابنا أن الحياة على هذه الوتيرة من السهولة واليسر والإباحية وإشباع الرغبات، فيدخل في روعهم أن تلك الصورة هي الواقع، وأن ما يرونه حولهم خداع وظلم، ومن ثم يتمردون ويسخطون، ويبحثون عن أيسر السبل كي يحققوا تلك الأحلام الوردية التي زوقها لهم ذلك الفن المخادع الذي يمالئ عواطف الشباب وينافقها ويسترضيها على حساب أعظم القيم وأنبلها..

وإذا كان الفن وثيق الصلة بالمجتمع، وانعكاسًا لواقع الحياة ومشاكلها وآلامها وآمالها، فإن الأمر جد مختلف عندنا، إنه أبعد ما يكون عن الحقيقة والواقع، ذلك لأن فنوننا سقطت في قبضة التقليد، واستعارة الأفكار والقضايا الأجنبية، وعاشت عالة على التراث الأجنبي، واستسلمت لتياراته وأهوائه واتجاهاته، فتاهت مقاصدنا بين غوغائية الفلسفات المستوردة، ولم نستطع أن نقدم فنًا متميزًا أصيلًا يحظى بالاحترام والتقدير..

إن الأمر الذي يعجب له الإنسان أشد العجب، هو أن مهنة التربية والتعليم سواء في الجامعة أو المدارس لها قيود ومواصفات ومؤهلات، بحيث لا يتولى أمرها إلا من اكتملت له الشروط المحددة من درجة التعليم والخبرة، أما الفن فقد ترك له الحبل على الغارب، وأصبحت الأغاني والتمثيل والقصص عملًا مباحًا لكل إنسان، وأهملت الرقابة على هذه الأمور، وتغلب الهدف المادي والترفيهي على الجوانب التربوية والأخلاقية والروحية، بل أصبح الفن والفنان مرتبطًا في أذهاننا بالتحرر اللامحدود، والانطلاق الأرعن، والتحلل الممجوج، وأصبح الفن نوعًا من المخدرات أو المسكنات لتلك الجماهير المطحونة، التي شغلتها لقمة العيش، ومتاعب الحياة، عن التعمق في هذه الجرائم التي ترتكب في حق الأجيال الجديدة..

وبطبيعة الحال فإن الأمر لا يعني مطلقًا أن نحول الفن إلى مجموعة من النصائح المباشرة أو الوعظيات والخطب، فالفن تعبير غير مباشر، وله مواصفاته وقواعده، ونحن لا نطالب بهدم هذه القواعد أو النيل منها، وإنما نركز على المضامين الفكرية فيه، وعلى الإيحاءات والتأثيرات الوجدانية التي يخلفها في نفس المتلقي، وعلى صور الأحداث المتراكمة المعقدة التي لا بد أن تهدف إلى شيء أعمق وأعظم، حتى ينشأ جيل جديد يدرك معنى الحرية الحقيقية، والحب النظيف، والجهاد الشريف في معركة الحياة. والوصول إلى الأهداف النبيلة، بالوسائل المشروعة..

لقد صور لنا الفن المستورد الحياة العصرية من جانبها المنحل، فالزوجة تراقص رجلًا غير زوجها، وتخاصره ويخاصرها، واشتداد الأزمات معناها أن يهرع البطل إلى زجاجات الخمر كي يطفئ غضبه وقلقه، ويخفف من حزنه وأساه، والحرية أن تفلت الفتاة -أو الفتى- من رباط الأسرة، وتنطلق على هواها تعاشر وتخالل، والآباء والأمهات يظهرن دائمًا بصورة المتعنتين المتخلفين الذين يصادمون نواميس التطور والتقدم، والإسراف والإتلاف معناها الرجولة والشهامة والوفاء، وارتكاب جرائم القتل، واللكمات والخناجر بطولة، والعنف والرعب الدموي في أفلام مصاصي الدماء، وسيلة

للتعبير عن الذات، وهو في الواقع جوانب منحرفة شاذة، أبعد ما تكون عن طبيعة الإنسان السوية، واتزانه النفسي.. مثل هذه الأمور التي تسيطر على الفن التمثيلي، قد أفرزت العديد من الانحرافات والشذوذ..

إن أبواب العالم الإسلامي المغلقة في وجوه الأجانب، هي في الواقع مفتوحة على مصراعيها للفنون البذيئة المدمرة، تتسلل منها ألوان شتى من الأوهام والأوبئة الفتاكة، وتفد إلينا من خلالها أفكارًا وآداب ذات هوية مشبوهة، وبعثاتنا التي نبعث بها إلى الخارج، تعود إلينا وقد تشبعت «بالإثم الفني»، وخلعت عنها رداء شخصيتها وأصالتها، وعادت مسخًا مشوهًا، يخدم مخططات خبيثة من حيث تدري أو لا تدري..

تلك هي الصورة الغالبة على فنوننا، وهي صورة أبعد ما تكون عن الصدق، ولا تتفق مع واقع حياتنا وطبيعتها، وليس لها اتصال وثيق بتراثنا وآدابنا وشخصيتنا ومبادئنا، حتى في البلدان الإسلامية التي أقامت مؤسسات للفنون والآداب، قد فاتتها هذه الحقائق المهمة، وركزت على الشكل دون الجوهر، واهتم بالصورة دون المضمون، حتى الهيئات التي وضعت تحت التوجيه بدوافع النظم السياسية، قد نظرت إلى الأمر نظرة قاصرة، بحيث التفتت إلى الترويج للمبادئ السياسية التي

تكلف لها الأمر والاستمرار والاستقرار، ولم تتناول النواحي الأخلاقية والاجتماعية التناول الصحيح، فما دام الفن لا يمس النظام ولا يتعرض له بالنقد أو المعارضة، فله أن يفعل ما يشاء، تلك النظرة القاصرة، انحرفت بالفنون إلى زوايا خطرة، وبذرت بذور الفساد والتحلل والتمزق في الكيان الاجتماعي، وأخذت تفعل فعلها في خبث ودهاء، في غيبة الوعي الصحيح، وفي غفلة الضمير الحي الحر..

إن وجهة النظر الإسلامية بالنسبة للفنون ليست قاصرة ولا جامدة، وليس هناك عداء بين الفن الصادق وبين الدين، بشرط أن يعرف الفن مكانته بالنسبة للدين، فالفن وسيلة، أو دعوة لقيم الخير والحب والجمال، والسمو بروح الإنسان وفكره وغرائزه، الفن ليس هدفًا في حد ذاته، ولكنه أداة لصنع الإنسان القوي الحر المجاهد، الإنسان المنطلق في أنحاء الأرض يكتشف ويعمر ويدافع عن القيم النبيلة، ويحمي شرف المخلوقات، ويذود الظلم عن المظلومين، ويخوض «معركة» السلام النفسي والاجتماعي والعالمي، حتى يكون لدينا عالم يسوده الرخاء والإخاء والمحبة..

من هنا نرى أنه لا صحة لما يقال عن وجود فجوة سحيقة بين الفن والدين، مادام الفن -من خلال التصور الإسلامي- يخدم قضية الدين، ويعمل جنديًا مخلصًا أمينًا تحت لوائه، وداعية

صادقًا في ظله، يتشرب قيمه وآدابه، ولا شك أن رداء «الإسلامية» الذي يتزيا به الفن يعتبر شرفًا ما بعده شرف، ومجدًا لا يدانيه مجد، وما أحوجنا إلى طائفة من رواد الفن الإسلاميين مزودين بأحدث الأشكال الفنية، كي يضعوا «البديل» لتلك الترهات والأوهام التي أفسدت معظم الفنون والآداب العالمية.

***

الرافعي.. والأيدي المتوضئة



في النصف الأول من القرن العشرين كان العالم يموج بأحداث كبرى، فقد شهدت هذه الفترة حربين كبيرتين، الحرب العالمية الأولى عام 1914 والحرب العالمية الثانية عام 1939، كما شهد العالم قفزات هائلة في العلوم الفنون وفي التكنولوجيا الحديثة، وكان صراع القوى العالمية يتجلى في كثير من الساحات، واستعملت فيه مختلف الأسلحة والأساليب، كما شهدت تلك الفترة أيضًا تغيرات ضخمة في العالم الإسلامي، حيت سقطت دولة الخلافة الإسلامية، وتمزقت الشعوب الإسلامية عامة، والعربية خاصة، وتمكنت القوى الاستعمارية أن تسيطر على مقدرات الأمة الإسلامية، وتستغل ثرواتها وشعوبها بشتى الطرق، مستخدمة العنف تارة، وألوان الدهاء تارة أخرى، وكان طبيعيًا أن تنبثق دعوات الإصلاح في بلادنا،

وأن يحمل لواءها رجال من مدارس فكرية متنوعة، ودار الصراع بين دعاة التحرر، عن طريق التجديد والأخذ بأساليب العصر المستحدثة، ودعاة اليقظة الشاملة، عن طريق إحياء التراث، والتشبث بالقيم العريقة، التي كان لها الفضل في إبراز حضارتنا المتميزة، وتحديد ملامح شخصيتنا التاريخية، والواقع أن ذلك التناقض أو التصارع بين دعاة التجديد والتقليديين لم يكن على تلك الصورة الصارخة، أو ذلك التناقض الحاد، لأن دعاة التجديد أغلبهم لم يهمل التراث، اللّهم إلا فئة قليلة متعصبة لكل جديد، ورفض كل قديم، وكذلك كان التقليديون لا ينكرون أهمية الأخذ بالأمور المناسبة المفيدة من منجزات العصر الحديث، لكن المغالاة في الدعوة إلى التجديد المطلق، كانت تدفع بعض التقليديين إلى التشبث أكثر وأكثر بالقديم وقيمه، وفي هذا الجو العاصف ظهرت دعوة الأفغاني ومحمد عبده وقاسم أمين وطه حسين، وظهر من الشعراء أحمد شوقي وحافظ ومحمد عبد المطلب، وظهر من النقاد العقاد والمازني وشكري، وظهر من الكتاب مصطفى صادق الرافعي والحكيم والزيات وزكي مبارك وغيرهم..

واستطاع المرحوم مصطفى صادق الرافعي أن يحتل مكانة بارزة بين كبار كتّاب عصره وكان له معارك قاسية مع أبرزهم

مثل معاركه مع العقاد وطه حسين وجورجي زيدان وغيرهم من الكتّاب والشعراء..

والواقع أن مصطفى صادق الرافعي كان موهبة فذة تتسم بالشجاعة والقوة والإخلاص والتميز، وليس أدل على ذلك من أنه وهو في أوائل العشرينيات من عمره أصدر ديوانه الشعري الأول، وكتب له مقدمة لفتت إليه الأنظار حتى ظن النقاد الذين لا يعرفونه آنذاك، أن تلك المقدمة من قلم متمرس له خبرة طويلة في هذا المجال، وأن كاتبها لا بد وأن يكون كبير السن..

وكان أسلوب الرافعي في كتاباته النثرية يغلب عليه -من ناحية الشكل- التأثر بالأساليب القديمة كأسلوب الجاحظ وكتاب العصر العباسي وغيرهم، كان هذا يبدو واضحًا لأول وهلة، لكن المتعمق في أدب الرافعي يجد أمرًا آخر جديرًا بالملاحظة والاعتبار، فالرافعي قد أدخل جديدًا في أساليبه الرصينة القوية، وأول ما نلاحظه في قصصه ومقالاته اهتمامه الفطري المعجز «بالصورة النفسية» والغوص في أعماق الإنسان بطريقة عجيبة، لا تتأتى إلا لكاتب حديث أفنى وقتًا طويلًا في الدراسات النفسية وعلم النفس، وهو أمر لم يثبته أحد من المؤرخين بالنسبة لكاتبنا، إذن فقد كانت براعته في التصوير النفسي نابعة من صدق في النظر، وإخلاص في التعبير،

واستجابة لفطرة يقظة واعية، ودليل ابتكار وحصافة عند ذلك الكاتب الكبير، نرى ذلك واضحًا في كتابه «المساكين» وفي قصة «السجين»، وأيضًا نراه في قصته «الانتحار»، وفي كتابه «أوراق الورد» و«حديث القمر» وغير ذلك من القصائد والقصص والخواطر القيمة التي سجلها قلمه الثري.. ولقد حاول الرافعي أن يقف صخرة منيعة في وجه الذين حاولوا النيل من العربية بأساليبها المشرقة، وبنائها المعجز، لأن العربية أولًا وأخيرًا لغة القرآن، ولغة التراث الضخم الذي خلفته الحضارة الإسلامية، وأي عزل أو إهدار لقيم اللغة، سيعني بالتبعية قطع الصلة بين الماضي والحاضر، وبالتالي انهيار صرح الفكر الإسلامي الصحيح، وتشتت أهله، وخسارة المعركة المصيرية التي يواجهها المسلمون، ولعل الحدة والتشدد اللذين نلاحظهما في أسلوبه نابعان من ذلك التصور..

أمر آخر، هو أن الرافعي كان يؤمن بقوة أن الإسلام ومبادئه وقيمه الخالدة هي وحدها القادرة، على صياغة حياتنا الجديدة صياغة قوية، يمكنها الصمود في مواجهة الحياة الحديثة وأفكارها المستوردة، وجحافل الغزو التي وضعت أقدامها على أرضها، ولقد سجل ذلك كله في عديد من المقالات والكتب، وخاصة كتابه «تحت راية القرآن» وصرح في أكثر من موضع،

وخاصة مقالته «الأيدي المتوضئة»، بأن الدعاة الإسلاميين، هم القادرون وحدهم على قيادة حركة التحرر والخلاص من الاستعمار والتخلف والجهل، فالعقيدة الصحيحة هي أساس أية حركة اصطلاحية، وهي زاد أية معركة مصيرية، وبدون العقيدة لا يستطيع أي شعب من الشعوب، أن يحقق كسبًا ذا قيمة، أو يضمن لنجاحه الاستمرار والتفوق والسيادة..

أمر ثالث، هو أن الرافعي لم يقف في برج عاجي عالٍ، يصدر منه بياناته وأفكاره، بمعزل عن الحياة والناس وأحداث العصر، بل إنه عايش المجتمع الذي نشأ فيه، وفهم البيئة التي خالطها، وأدرك عللها ومشاكلها، فلم تكن أفكاره التي قدمها، والحلول التي اقترحها نابعة من خيال عاجز مقهور قاصر وإنما جاءت نتيجة معاناة، ودراسة للواقع والتاريخ، واستجابة لما فاض به كتاب الله من آيات وأحكام وشرائع، ضمت أمور الدنيا والآخرة، واحتضنت شتى العلاقات الفردية والجماعية، لذا كانت التجربة الحضارية للإسلام حاضرة في ذهنه بكل صورها وأشكالها، في مجالات السياسة أو الاقتصاد أو التربية أو الجهاد أو الأخلاق، وأخذ الرافعي يصوغ ذلك كله في كتب ومقالات تنشرها المجلات العربية، وخاصة مجلة «الرسالة» الشهيرة، أو يصوغها في أناشيد يرددها الشباب، وما زالوا يرددونها حتى

يومنا هذا، وكلها تتغنى بحب الله والوطن والناس، والدعوة إلى حياة الكرامة والمجد والتضحية والفداء.. أمر رابع.. هو أن الرافعي في أدبه كان متعاطفًا مع الضعفاء والمساكين والمقهورين يصور عالمهم التعس في مرارة، ويذكر أحزانهم في ألم، ويعايش آمالهم الغاربة في شجن، ويلتمس لضعفهم الأسباب، ويجعل من مأساتهم فجيعة تحرك القلوب الجامدة، والمشاعر المتبلدة، كان إنسانًا يبكي آلام أخيه الإنسان في صدق وإخلاص.. ولذا كان حبه من ذلك النوع الحزين الذي يتفق والفجيعة الكبرى التي ألمت بعالمنا الإسلامي، ومزقت آماله، يقول في إحدى قصائده:

مـــن للمحـــب ومـــن يعينـــه
والحـــب أهنـــؤه حزينـــه
أنـــا مـــا عرفـــت ســـوى قـــساوته
فقولـــوا كيـــف لينـــه؟

ويمكننا أن نقول إن كتابات الرافعي قد مرت بمرحلتين: المرحلة الأولى وهي التي تتسم بقدر من الصعوبة، بحيث تحتاج قراءتها لغير قليل من التأني وإمعان النظر حتى تُفهم الفهم الصحيح، وهذا يبدو جليًا في كتاباته الأولى «كالمساكين» و«أوراق الورد» و«حديث القمر»، أما المرحلة الثانية، فهي

مرحلة الكتابات الواضحة السهلة التي لا يصعب فهمها، أو تدق معانيها بصورة تكاد تكون غامضة، في هذه المرحلة، بدأ الرافعي يكتب في الصحف والمجلات الأسبوعية، ويتناول قضايا وموضوعات تشغل بال الناس والمجتمع، عندئذ زاد عدد قرائه، واتسعت شعبيته، وأصبح له الكثير من الأتباع والمؤيدين، ويبدو أن موضوعات الساعة التي فرضت نفسها، قد احتاجت لذلك الأسلوب المناسب، فسجلها بأسلوب حي متدفق دون إسفاف أو ركاكة، هذه المرحلة تبدو واضحة في كتابه «وحي القلم» الذي جمع فيه العديد من المقالات الاجتماعية والسياسية، وفي كتابه «تحت راية القرآن» وفي كتاباته النقدية عن تاريخ الأدب العربي، وكتاباته التاريخية، وفي مختلف القضايا التي أثارها أعداء الإسلام من مبشرين ومستشرقين متحيزين وممن وقعوا في إسار الغزو الفكري الماكر من الكتاب المسلمين..

ولقد كان رحمه الله حادًا في حواره، يهاجم بشدة وعنف، كل من اعتقد أنه ينال من العربية والإسلام، أو يفتئت على الحقيقة، أو يزيف وقائع التاريخ، أو يرميه بالخطأ، ولعل هذا هو السبب، في احتدام المعارك بينه وبين بعض معاصريه من الكتاب والنقاد، وعلى رأسهم الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، مما جعل الرافعي يشن عليه حملة شعواء في كتاب شهير أسماه «على السفود» ومعروف أن السفود هو القضيب المعدني الذي يشوى

عليه اللحم.. هذا العنف في الجدل أو الحوار قد أخفى كثيرًا من الجوانب العظيمة في كتاباته وكتاباتهم، لكن هدوء المعركة، وزوال الحدة، قد أعاد الإشراق إلى النواحي الإيجابية في فكر الرافعي وفكر اقرانه، الذين كانوا يهدفون عمومًا إلى الوصول إلى الصورة المثلى النافعة لبلادهم..

وأيًّا كان الأمر، فإننا نستطيع أن نقول إن الرافعي قد أدى رسالة كبرى في معركته الفكرية الواسعة، وذلك ذودًا عن اللغة العربية وأصالتها، ودفاعًا عن الإسلام وقيمه الغالية، وحضارته الخالدة، وإنه قرر في معظم كتاباته أن «الحل الإسلامي» هو الحل الصحيح لمشاكل وطنه ومشاكل العالم الإسلامي كله، وجعل من هذا الالتزام الإسلامي نهجًا يسير على هداه..

لكن ما معنى «مؤامرة الصمت» تلك التي تقف اليوم إزاء تراث الرافعي العريق؟ أهي جزء من المؤامرة الشاملة ضد الإسلام والإسلاميين في هذا العصر؟؟ أهي مخلب من مخالب الغزو الفكري الذي يأبى إلا أن يطمس الحقائق النيرة الباهرة في تاريخنا الإسلامي المعاصر؟؟

إن أدب الرافعي يجب أن يعود إلى الجيل الجديد كسلاح يدافع به عن قيمه الأصلية، ويضرب في قلب الإلحاد والصهيونية والاستعمار، ويجب أن تؤخذ منه منتخبات تدرس

لأبنائنا في المدارس، لعلها تكون أجدى نفعًا من «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»، لأن القيم التي آمن بها الرافعي ودافع عنها، كفيلة بأن تكون «كالطعم الواقي» لهذه الأجيال من الانحراف والتسيب، والتشبث بأذيال البدع المستوردة.. ألا ما أكثر المناهج التعليمية والتربوية التي تنأى كثيرًا عن واقعنا وأهدافنا، وتناقض المبادئ الخالدة التي قام على أساسها نضالنا الطويل، وتاريخنا الزاهر!!!

ولماذا لا يتفرغ بعض مؤرخينا وكتابنا لدراسة تاريخ هذا الرجل وعصره والتيارات التي أثرت فيه وأثر فيها، إني لا أعرف -حسبما أظن- إلا كتابًا للمرحوم سعيد العريان -تلميذ الرافعي- وكتابًا آخر للأستاذ أبو ريه أحد تلامذته أيضًا، ودراسة ثالثة أصدرها «كتاب الهلال»، ودراسة جامعية رابعة لأحد طلبة الدراسات العليا.. لكن مصطفى صادق الرافعي لم يزل أرضًا بكرًا لكثير من الدراسات الجادة المنصفة.. إن رافع لواء «الأيدي المتوضئة» يجب أن ينال حقه من الاهتمام والتقدير .. ولن يتم ذلك إلا على أيدي رجال يؤمنون بفكر الرجل ودوره الرائد في معركة النصر..

***

«علي باكثير» .. على طريق الإلتزام



كان «علي باكثير» رحمه الله، علمًا من أعلام الأدب الإسلامي المعاصر، ورائدًا من رواده الكبار، ولقد ربطتني به صلة وثيقة في سنوات عمره الأخيرة، فعرفت الكثير عن أخلاقه وفنه وحياته الحافلة بالدأب والوفاء والصدق، عاش في حضرموت وأندونيسيا ومصر، واطلع على كثير من الآداب العالمية من خلال اللغة الإنجليزية التي كان يتقنها، فقد ترجم لشكسبير، وكتب القصة والرواية والمسرحية والشعر، وفي المسرح كتب الكوميديا والتراجيديا، وكان مولعًا بتصفح التاريخ الإسلامي والعربي، عاشقًا لبطولاته وحضارته العظمى، وكتب القصة السينمائية، فجاء فيلم «سلّامة» التي قامت ببطولته السيدة أم كلثوم والفنان يحيى شاهين، فجاء هذا الفيلم من أنجح وأجمل الأفلام المبكرة في تاريخ السينما العربية.

ولقد روى لي «علي أحمد باكثير» أنه كان في بداية حياته يريد أن يكون من رجال «الحديث» فأخذ يدرس علم الحديث ورواته ومراتبه، وقطع في هذا المضمار شوطًا بعيد المدى، لكن الأقدار أرادت له أن يتجه صوب الأدب، فكان أن قدم الكثير من الأعمال الأدبية الفذة، ذات الصلة الوثيقة بالقيم الإسلامية والتاريخ الإسلامية وشخصياته المميزة، التي كان لها أعمق الأثر في مجريات الأحداث الكبرى.

وكان أديبنا الكبير واحدًا من «لجنة النشر للجامعيين» التي اشترك في تأسيسها نخبة من كبار الكتاب مثل عبد الحميد جودة السحار، ونجيب محفوظ، وسيد قطب، ومحمد عبد الحليم عبد الله وغيرهم، وهي اللجنة التي تبلورت في النهاية، وأنجبت «مكتبة مصر» الشهيرة، بشارع الفجالة بالقاهرة، والتي تخصصت في طبع ونشر وتوزيع الكتب الأدبية والدراسة الجيدة.

ولقد قلنا إن باكثير قد ترجم لشكسبير في باكورة حياته، ويلاحظ أن هذه الترجمة، كانت نمطًا فريدًا، فقد ترجمها شعرًا حديثًا، وبذلك يكون باكثير أول من كتب ما يسمونه بالشعر الحديث في أدبنا المعاصر، وكتب باكثير قصة «وا إسلاماه» التي طبعت عدة مرات، وقررت على طلبة المدارس لسنوات طويلة، وجلبت له الشهرة والذيوع، والقصة تصور حقبة فريدة من

أحقاب التاريخ الإسلامي، وصمود الإسلام في وجه الزحف التتري، وذوبان النعرات الطائفية والشعوبية والعنصرية، وبرزت الشخصية الإسلامية التي قهرت عوامل القهر والغدر والفناء، وخرجت من المعركة قوية صامدة، لا تنال منها الأحداث، ولا تهزها العواصف الهوجاء. كما كتب بعدها قصة «سيرة شجاع»، وهي تتناول موضوعًا مشابهًا، بالإضافة إلى المسرحيات القصيرة الإسلامية ذات الفصل الواحد أو الفصلين والتي كان يكتبها خصيصًا للمجلات الأسبوعية والشهرية.. كما كتب مسرحية «هاروت وماروت» اللذين ورد ذكرهما في القرآن الكريم، وفيها دفاع عن قوة الإنسان وكرامته، وصموده - بإرادته القوية- ضد النزوات والأهواء والمطامع.. كما كتب مسرحية «إيزيس وأوزوريس» وهي أسطورة فرعونية تناولها تناولًا حديثًا، أبرز فيها الوفاء الأسري، وقمة الحب الإنساني، وصبر الإنسان في مواجهة الأقدار وما تأتي به من أحداث، وإشراق الفكر والروح بالحرية الحقيقية..

ولم يعتزل «باكثير» البيئة المعاصرة التي يعايشها، أو يتجاهل مشاكلها وأحداثها، فقد كتب مسرحية «جلفدان هانم»، هي كوميديا جميلة، تناولت بالنقد والسخرية أوضاعًا رثة مهترئة، وأبانت عن كثير من وجوه القصور والزيف والغرور في ناحية

من نواحي الحياة الاجتماعية القائمة، وفعل نفس الشيء في مسرحيات كثيرة مثل «حبل الغسيل» وغيرها..

ثم كانت القضية المهمة الحاسمة «قضية الشيوعية»، إن علي باكثير المسلم، المؤمن بقيم السماء، يرفض بشدة تلك التيارات الملحدة الزاحفة نحو ديارنا، وباكثير الابن البار للحضارة الإسلامية، تلك التي غذته بلبانها، وأمدته بحكمتها وصدقها وشموخها، لم يكن ليقف مكتوف اليدين، إزاء ذلك الخطر الذي يهدد أغلى ما يؤمن به من مبادئ وسلوك وأفكار، فكان كتابه «الثائر الأحمر» صيحة أدبية رفيعة في وجه الغرور والحقد والمروق، كما كان إيقاظًا للنائمين من أبناء الجيل الجديد الذي كاد اللون الأحمر، البراق بالترهات والأكاذيب، أن يضمهم تحت جناحه الغادر..

ولعل هذا الأمر تسبب لباكثير في التعرض للاضطهاد والمعاناة والجحود، ففي فترة من الزمن تسلل «الملحدون» إلى الصحف والمجلات ومنابر الإذاعات والتليفزيونات، فكان أن دبروا لباكثير حملة ماكرة من التشويه أحيانًا، أو التجاهل أحيانًا أخرى، وكانوا يغمزون نحوه في مجالس الأدب ومنتدياته ويقولون عنه في سخرية «إسلامستان»، حسبما روى لي بنفسه..

وكان رحمه الله يضحك في هدوء، ويبدو بريق السعادة والثقة في عينيه خلف نظارته الطبية البيضاء، ويقول «إنه لشرف عظيم لي أن أتهم بالإسلامية فيما أقدمه من أدب..».

ولم تستطع هذه القوى الشريرة أن تقضي على مجد باكثير الأدبي، فقد أخذ اسمه يتردد في أنحاء العالم العربي والإسلامي، وأصبح عَلَمًا على مدرسة بعينها في الفن والفكر والأدب، وأصبح الآباء والأمهات، يسارعون بتقديم مؤلفاته لأبنائهم وبناتهم، بديلًا عن تلك القصص الجنسية ذات الإثارة المدمرة، ولم تنجح مؤامرة «الصمت» أو «التشويه» في إسكات صوت باكثير، أو التقليل من شأنه، أو إنقاص عدد قرائه، وكيف ذلك بعد أن أصبحت مؤلفاته توزع على كثيرٍ من طلبة المدارس الثانوية، وأصبحت موجودة في كل بيت.. في القاهرة ودمشق وبغداد والجزائر وعواصم العالم العربي والإسلامي قاطبة، بل في جميع القرى والنجوع والكفور.. إن الأصالة والصدق يفرضان نفسيهما، ويقاومان عوامل القهر والفناء مهما كانت شراسة المعركة التي تريد أن تدمر الإسلامية وأعلامها.. ولذا عاش باكثير، ومات الأقزام الحمر الذين استوردوا الأقنعة الزائفة ليغطوا بها وجه الحياة الفكرية الصحيح..

وفي مايو عام 1960 شاءت إرادة الله أن ينال باكثير جائزة عن مسرحيته الممتازة «دار ابن لقمان»، كما نلت أنا جائزة عن

روايتي «اليوم الموعود» وذلك في المسابقة الكبرى التي أجراها «المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب» بمناسبة الحروب الصليبية، وانتصار المسلمين على جيوش «لويس التاسع» ملك فرنسا، وأسره في دار ابن لقمان بالمنصورة، وقضينا معًا ثلاثة أيام في المنصورة، حيث أقيم احتفال تاريخي كبير تسلمنا فيه الجوائز من رئيس الجمهورية آنذاك (الرئيس جمال عبد الناصر)، وقد علمت من باكثير أنه قضى في المنصورة سبع سنوات كمدرس في مدرستها الثانوية، كانت من أجمل أيام حياته، ثم أخذ -رحمه الله- يتحدث عن أهمية إبراز القيم الإسلامية في أدبنا الحديث، وفتح أعين الأجيال الجديدة على ما فيها من كنوز لا مثيل لها، والتصدي لتيارات الغزو الفكري الآثمة، وكان يحاول أن يرسم صورة صادقة لفساد الحياة الفكرية.وخللها في تلك الفترة، وأثر ذلك على مستقبل الأجيال والأوطان، وضرورة مجابهة تلك التصورات الزائفة بالفن الصادق الصحيح، وبالأدوات الفنية المستحدثة، وباستيعاب الجديد في الأشكال الفنية، وملئها بالمضامين الفكرية السليمة..

وفي عام 1962 كنت معه في رحلة إلى قطاع غزة ضمت عديدًا من الكتاب والشعراء والمفكرين والممثلين ورجال الإذاعة والتليفزيون من رجالات سوريا ومصر والعراق ولبنان، وذلك للاطلاع على أحوال اللاجئين الفلسطينيين على الطبيعة،

والكتابة عن تلك القضية المصيرية، في الأعمال الأدبية الحديثة وشكا رحمه الله من أنه يعاني من قصور في الدورة الدموية للقلب، وأنه يتعرض لنوبات قلبية من وقت لآخر، ومع ذلك فقد كان يفكر في إنجاز عمل أدبي كبير هو «ملحمة عمر»، وكانت لائحة تفرغ الأدباء والفنانين قد صدرت في ذلك الوقت، وسرعان ما تقدم بطلب يرجو فيه من اللجنة الموافقة على «منحة تفرغ» لمدة عامين كي ينجز هذا العمل الضخم، وكانت لجنة التفرغ مشكلة من عدد من كبار الكتاب والمفكرين أذكر منهم الدكتور طه حسين، وعباس العقاد ويحيى حقي وغيرهم، وقد وافقت اللجنة على مشروعة فورًا، وبدأ إجازة من عمله لمدة عامين، براتب بسيط مقداره خمسة وسبعون جنيهًا مصريًا... وفي نهاية العامين، قدم «ملحمة عمر» في عمل مسرحي كان (16 جزءًا) حسبما اعتقد..

كانت هذه الملحمة من أكبر وأهم الأعمال المسرحية التي كتبها على أحمد باكثير، واستطاع رحمه الله أن يقدم صورة حية نابضة بالقوة والإيمان والصدق والإيثار والتضحية والحكمة لأمير المؤمنين وقائد المسيرة الإسلامية الرائد «عمر بن الخطاب» والملحمة خاصة بالشخصيات الإسلامية والتاريخية التي رسمت في براعة ودقة، ملتزمة بأبرز الحقائق التاريخية، دون تجاهل لقواعد الفن المسرحي بمفهومه الحديث، وفي الملحمة

انعكاس الصورة الحضارية الفذة للإسلام في أقوى وأقوم أيامه، وفيها تعبير بارع عن الصراع الخالد بين قوى الخير والشر، بين الحشود الإسلامية المدعمة بقوة العقيدة، وبين أباطرة الروم وأكاسره الفرس، ولم يغفل كاتبنا الكبير رحمه الله عن إبراز الحياة الاجتماعية هنا وهناك، وعن التناقض المريع بين مجتمعين.. مجتمع ينمو ويترعرع ويسود، ومجتمع يتضاءل ويتآكل وينخر فيه الفساد والتحلل والتمزق.. كان هذا الصراع الحضاري الجذاب من أجل ما رسمته براعة على باكثير رحمه الله..

وقضى باكثير سنواته الأخيرة على شاطئ النيل بالمنيل، يتطلع كل يوم من شرفته العالية إلى أمواج الحياة تتدفق من حوله، يقرأ فيها حكمة الأزل، ويحاول أن يكشف الستار عن بعض أسرار الوجود، وكثيرًا ما كان يستقبل بعض أقربائه أو أصدقائه من «حضرموت»، فيحدثهم بنبرته المنخفضة، حديث المخلص المتواضع، ويدلي برأيه في كثير من القضايا المهمة ببساطة غريبة، فإذا تدبرت ما يقول وجدته قد أصاب كبد الحقيقة دون ضجيج أو غرور..

ويوم أن حملت الصحف نبأ وفاته، وقد كنت هنا في دولة الإمارات منذ سنوات، تناولت القلم، وكتبت عنه سطورًا قليلة في جريدة الاتحاد.. وسقطت من عيني دمعة على الرجل العظيم الذي لم ينل حظه من التقدير والتكريم.. مات باكثير.. وخلف

تراثًا عظيمًا من الأدب العظيم وإن لم يخلف ولدًا ولا بنتًا.. رحم الله باكثير ونفعنا بأدبه وخلقه.. وجعلنا نسير على طريق الإسلامية الذي أفنى حياته فيه.

***

الحياة.. والحب..



الحب -بمعناه الحقيقي الشامل- عاطفة نبيلة، وشعور رقيق، وسلوك مرهف، وإثراء للروح والوجدان بأعظم الأحاسيس وأروعها، وهو بذلك سر الوجود، وروح الحياة، والنسمة العليلة المنعشة في صحراء المتاعب والآلام والصراع، يتجلى ذلك كله في آلاف الصور الحية التي نشهدها في حياتنا اليومية، في عيون الآباء والأمهات، وعلى وجوه الأطفال الصغار الأبرياء، وحتى في لمسات الحيوانات لصغارها، وفي مشاهد العطف الإنساني المتألق بين القوي والضعيف، والغني والفقير، والصحيح والعليل، ولولا الحب لأقفرت الحياة من كل معنى نبيل، وجفّت ينابيع الخير والرحمة على الأرض، واستحالت الدنيا إلى جحيم لا يطاق، ولأصبح باطن الأرض خير من ظاهرها..

والأشقياء في هذا العالم هم الذين ضلوا الطريق إلى الحب، وأخطأوا مورده العذب، فعاشوا حيارى قلقين، يمزقهم الخوف، وتأكلهم الأنانية، وتشقيهم العزلة والوحدة والسأم.. فالحب هو النغمة الحلوة الشجية التي تبعث الأمل والسعادة والفرحة الغامرة في قلوب بني البشر، وتشعل فيهم الرغبة في الحياة والكفاح والتضحية والحرية..

ولم تستطع دعوة من الدعوات، أو عقيدة من العقائد، أن تسيطر على أرواح الناس وأفكارهم، وتحقق لهم النصر والنجاح والسعادة، إلا إذا اتخذت الحب طريقًا لها، وجعلت منه الرباط المقدس الذي يجمع القلوب والعقول في صعيد واحد.

وإذا بحثت عن سر التعاسة التي تشمل مجتمعًا من المجتمعات، أو تلف تحت ردائها الأسود أمة من الأمم، إلا وكان غياب الحب، وانحسار أثره، هو السبب الكامن وراء تلك التعاسة، والشعوب التي اتخذت الحقد والكراهية والتصفية الدموية أسلوبًا في سياستها ومناهجها، هذه الشعوب فقدت فعلًا المعنى العظيم للحياة والإخاء الإنساني، برغم كل ما تدعيه من رفاهية وتقدم علمي واقتصادي واجتماعي.. لأن جوهر الحب لا يتغير بتغير الأزياء والألوان والأجناس والأديان والطبقات.

لكن -للأسف- أصبح الحب في عصرنا صورة تائهة ضالة، وأصبح ضيق الأفق، وقصير النظرة، ملوثًا بالأهواء الدنيوية، والمطامع الرخيصة، والمعاني الخاطئة، بحيث فقد أثره، وغطى على جوهره، وأصبح مجرد اسم يردده الناس دون فهم أو تمثل لحقيقته الرائعة..

لقد انحصر معنى الحب في الرغبات الجنسية اللاهبة المؤقتة، أصبح رمزًا للانحلال والفساد، وعنوانًا للجشع والأنانية، ومجالًا للسيطرة والتملك وإشباع الغرائز، وأحيانًا يكون الحب صورة صارخة للنهم المادي، وجمع المال الذي أصبح -والعياذ بالله- إلهًا يعبد في كثير من بقاع الأرض، وقد يكون الحب مركزًا في حيازة السلطة القاهرة، التي تدوس أغلى القيم والمشاعر، تستذل عباد الله، لإرضاء شهوة مريضة في نفس إنسان معتل الروح.. وقد يتحول حب الوطن إلى عنصرية مقيتة، أو عصبية عمياء، تنزل بالإنسان إلى أحط الدرجات..

هذه الصورة الشاذة المنحرفة للحب، قد روّجت لها الفنون الرخيصة في السينما خاصة، بحيث استقر في أذهان الناس -والناشئة خاصة- أن الحب هو ذلك السعار الجنسي أو السعار المادي، أو قهر الآخرين من أجل أن ينعم فرد بذاته أو مجموعة معينة من الناس..

ولقد حرصت الرسالات السماوية على تأكيد معنى الحب الحقيقي، وتأصيله في نفوس الناس كنقطة انطلاق نحو حياة أفضل وأسعد، وفي ظل هذا الحب الكبير، نزلت شرائع الله، وتفانى المؤمنون في إبلاغ الدعوة، وضحوا بأرواحهم وأموالهم وراحتهم كي يسود الحب، ويتأصل الإخاء، وينتشر العدل والرخاء، وينعم الجميع تحت لواء الحرية والخير والصفاء..

ولقد وضع رسول الله ﷺ المعنى الشامخ للحب حين ربطه بالإيمان والعقيدة حيث قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»، فالحب الأسمى حب الله ورسوله، وهو في هذا الإطار حب يضم الكثير من الالتزامات والواجبات، أولها الرضى بقضاء الله وقدره، واتباع ما أتى به سبحانه من أوامر ونواه، وطاعة تامة لآدابه التي جعلها أساسًا لإسعاد الفرد والمجتمع، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، فالسير على طريق الله ورسوله هو التفسير العملي للحب الإلهي. وفي معنى الحديث القدسي: «ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يسعى بها..» إنها صورة للحب الشامل الكبير، الذي يجعل من المخلوق كائنًا سماويًا شفافًا ذا قدرات هائلة لا تحدها حدود،

ولا تحجبها غواش أو حوائل.. ثم يأتي ذلك الحب في الله، حيث يتآخى الناس في ظل العقيدة الإلهية التي جمعتهم تحت لوائها، ونتيجة لهذا الحب يقول الله يوم القيامة كما جاء في الحديث القدسي: **«أين المتحابون فيّ، اليوم أظلهم تحت ظلي حيث لا ظل إلا ظلي»**.

وترعرت شجرة الحب الإسلامي، وتسامقت فروعها حتى شملت السماء والأرض، واحتضنت ظلالها ألوان الحب المختلفة. الحب الأسري الذي يربط بين الآباء والأبناء وبين الرجل وزوجته، والأخ وأخيه، والجار وجاره، والحاكم والمحكوم، والغني والفقير، بل والمسلم وغير المسلم في ظل شروط وآداب واضحة لا لبس فيها ولا غموض، والسيد وخادمه، والمنتصر والمهزوم، بل تخطى ذلك الحب حدود الإنسان، إلى حب الحيوان، والرفق به، والحدب عليه، وقد «دخلت امرأة النار في قطة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»، كما غفر الله لإنسان سقى كلبًا كان يقتله الظمأ، بل إن نبي الله عيسى عليه السلام جاء عنه أنه قال «أحبوا مبغضيكم» ..

وكل تلك الألوان الجميلة من الحب، على مختلف صورها، هي في الواقع قطرات من ذلك الحب الكبير، الحب الإلهي، الذي كان له صفحات خالدة في الآداب الإسلامية، وتاريخ

الصالحين والعابدين والمؤمنين، ذلك الحب الخالص المبرأ من الهوى والغرض، والتي عبرت عنه رابعة العدوية بقولها:

أحبك حبين: حب الهوى
وحبًا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى
فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له
فكشفك لي الحجب حتى أراكا

ويقول أحد كبار العبّاد:

أدين بدين الحب أنّى توجهت
ركائبه، فالحب ديني وإيماني

فالحب لدى المسلم عقيدة وخلق وسلوك، هو الحياة بكل نواحيها وصورها، هذا النسيج المقدس، هو الذي ضم سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، وأبا ذر الغفاري، ورسوله الله محمد بن عبد الله، هذا الحب كان اللبنة الأساسية في البناء الحضاري الخالد الذي أقامته المبادئ الإسلامية العريقة، فدخل الناس في دين الله أفواجًا، وانهارت أمام زحفها قلاع الرومان، وحصون فارس، لأن تلك القلاع والحصون ما قامت إلا على قواعد الاستغلال والعبودية لغير الله، والظلم والمفاسد،

ومشاعر الخوف والحقد والقهر، وهكذا كانت حضارة الإسلام هي حضارة «الحب الكبير» بمعناه الشامل، وبانعكاساته الإيجابية المبنية على علاقات الإفراد والجماعات..

ثم إن ذلك الحب المتبادل بين الله وعبيده حب فريد خالص، مبرأ من كل هوى وغرض، وليست المصائب أو الكوارث التي تحل بالإنسان في بعض الأحيان نقضًا لهذا الحب، أو خروجًا على تقاليده، لأن الله -كما جاء في الحديث الشريف- إذا أحب عبدًا ابتلاه، والابتلاء اختبار منه سبحانه، وقد يكون تكفيرًا عن بعض ذنوبه، أو تخفيفًا لمصيبة أكبر كانت توشك أن تحل به، فكانت رحمة الله في التخفيف، هكذا يفهم المسلم نكبات الدهر، ونوازل الزمان، أو ابتلاء الله، لأن حب الله لعباده المؤمنين أمر لا شك فيه، ولا تزعزعه كارثة تحل أو مصاب يحط، فهو حب فوق ذلك كله، يتسامى فوق الأحداث ومضاعفاتها.. والمؤمن يثاب عن كل ما يلم به، حتى الشوكة يشاكها، له بذلك ثواب..

ولقد كانت قوة الحب وشفافيته في قلوب المؤمنين تجعلهم يتحرزون من أي تصرف فيه شبهة من قسوة أو ظلم، مما جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول قولته الشهيرة: «والله لو عثرت بغلة في العراق لسئلت عنها لِم لم أسوِّ لها الطريق؟؟» .

والآن ماذا نرى في عالمنا اليوم؟! إن صور الصراع الدامي، ونعرات الشعوبية والعنصرية والعصبية الخرقاء، ما هي إلا

أعراض لعلة ذلك العصر، تلك العلة هي الحقد، وما يتفرع عنه من جور ومظالم وانحرافات، فالحروب في كل مكان، سواء أكانت حروبًا بالسيف أو القنبلة أو القلم. والصراعات تجتاح المجتمعات المتقدمة، والمتخلفة، سواء في أمريكا، أو بريطانيا أو أمريكا اللاتينية أو أفريقيا أو آسيا، صراعات بين أصحاب الأديان المختلفة، وصراع بين القوميات المتباينة، وصراع بين المذاهب السياسية المتعصبة.. وفي كل يوم يسقط البشر صرعى الغدر والاغتيال، والحروب الصريحة والخفية، ويخسر الناس الملايين في استخدام آلات الدمار، وتدمر المنشآت والمؤسسات النافعة في خرق أبله، من أجل أطماع جشعة، وأحقاد صغيرة..

إن غيبة الحب بمعناه الحقيقي عن عالمنا المعاصر هو سر شقائه وانحداره، وما نراه من صور الوفاق الزائف، أو الحب الرسمي، أو المجاملات الفردية والجماعية، ما نراه من هذا كله ليس سوى خداع ورياء ونفاق..

ولو عرف العالم طريق الحب، لعرف طريق النظام والقانون والأخوة، ولحلت «الكلمة الطيبة» محل «الطرود الناسفة»، ولتحولت الخرائب إلى بساتين، والحروب الطاحنة إلى مواكب للفرح والسعادة والإخاء الإنساني.. ولاستحال سباق التسلح الرهيب، إلى تعاون في إيجاد لقمة العيش للجياع، والعلاج

للمرضى، والعلم للجهلاء، ولاستحالت أوكار المؤامرات والغدر إلى محافل الصفاء والبناء والعبادة...

وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان..

وإذا أردنا أن نكتب وصفة طبية لعالمنا المعاصر العليل التعس، فلن نكتب فيها سوى دواء واحد هو «الحب» ..



الإسلامية.. في شعر أمير الشعراء



إن عظمة الشاعر تكمن فيما يتناوله شعره من قضايا وأفكار، وذلك في إطار الشكل الفني الناضج، وبالأسلوب القوي المعبر المناسب، وكلما التزم الشاعر بمبادئ وقيم عظيمة مؤثرة، كان فنه أروع وأفضل، وعلى الرغم من أن عالم شوقي الشعري كان عالمًا رحبًا، غنيًّا بالكثير من الصور الحية النابضة، إلا أن حيزًا كبيرًا منه، قد تخصص في الفكر الإسلامي، وعلاقته بالحياة والناس وحركة التاريخ قديمًا وحديثًا، في صورة مباشرة لا لبس فيها ولا غموض بالإضافة إلى سيطرة المعاني الإسلامية على أغلب شعره بطريقة أخرى غير مباشرة، نراها في أحكامه العامة، وفي أخلاقيات الشخصيات التي يتحدث عنها، والأحداث الكبرى التي يتعرض لها..

ولعل قصيدة «نهج البردة» وقصيدة «الهمزية» الشهيرتين، تقفان في مقدمة شعره الإسلامي المباشر، الذي يتعرض فيه

للإسلام بغير قليل من الدقة والتفصيل، مستخدمًا أساليب الدراسة والحوار البناء، والأدلة المنطقية التي سادت في عصره آنذاك، ذلك العصر الذي شهد دراسات إسلامية حديثة جادة اشترك فيها كبار الكتاب والشعراء، وأيضًا كتاب القصة والمسرح..

ولقد حظيت النزعة الإسلامية في شعره شوقي باهتمام الكثيرين من النقاد والمؤرخين، لدرجة أن أحد أساتذة الجامعة قد أفرد لها كتابًا ضخمًا، كما أن كتاب التراجم والسير الذين كتبوا مؤلفات عن شوقي أو عن الشعر المعاصر لم يتجاهلوا تلك الحقيقة الناصعة، بل إن مسرحيات شوقي العديدة لم تغفل هذه النواحي المهمة، حتى التاريخية منها سواء ما كتب عن العصر الفرعوني أو الروماني أو الأموي، نشعر من خلال الحوار الشعري الفياض المعبر بالمعاني الإسلامية الرقراقة التي لم يستطع الكاتب أن يتخلص من آثارها حتى في عصور ما قبل الإسلام.. ولا شك أن سيطرة المبادئ الإسلامية، والقيم الروحية على فكر الشاعر وقلبه، أمرًا مفروغًا منه، بل مؤكدًا بالكثير من الشواهد التي لا يتسع المجال لعرضها (انظر كتابنا: «شوقي في ركب الخالدين»، وخاصة فصل: «الإسلام في شعر شوقي») ولقد كان لشوقي قدرة هائلة على التعبير المركز الذي يزخر بالكثير من المعاني الكبيرة، لنقرأ معًا هذا البيت من همزيته الرائعة عن الإسلام:

الــــدين يـــسرُ، والخلافــــة بيعــــةُ
والأمـــر شـــورى، والحقـــوق قـــضاءُ

لقد استطاع أمير الشعراء أن يلخص فلسفة الحكم في الإسلام في بيت واحد، فالإسلام، رسالة الله الأخيرة إلى الأرض، كله يسر ووضوح، لا يتنافى مع طبيعة البشر وواقعهم، يتفق مع قدراتهم وفطرتهم ومصالحهم، وليس هناك حاكم يفرض نفسه، فالخلافة بالبيعة، والقرارات التي تتخذ، والإجراءات التي توضع، تنبع من قاعدة الشورى، حيث حرية الرأي والتعبير، وحيث النزول على رأي المتخصصين المخلصين، والعدل هو أساس القضاء والحكم، مهما تكونت وتنوعت الأساليب، تلك هي القواعد العامة للحكم، والتي يسردها الشراح والمشرعون في مئات بل آلاف الصفحات، كلها جاء بها شوقي في كلمات قصار، ورفعها شعارًا عاليًا خفاقًا عبر التاريخ الإسلامي الزاهر.. والحرب في الإسلام لا تقوم بسبب الرغبة في السيطرة والغزو، وتحقيق الأمجاد المادية أو الدنيوية، أو إذلال الشعوب، واستنزاف ثرواتها، وتحويل الأفراد إلى عبيد أو رقيق، الحرب في نظر الإسلام جهاد في سبيل الله، وإحقاق للحق، وفتح الطريق أمام الناس كي يختاروا عقيدتهم، دون كبت أو قهر، يقول شوقي مخاطبًا رسول الله ﷺ:

الحـــرب في حـــق لـــديك شريعـــة
ومـــن الـــسموم الناقعـــات دواءُ

من هنا كانت القوة العددية وقوة العدة ليست هي الأساس الأول، بل هناك العقيدة والإيمان وقدرة الله، فالقلة المؤمنة، تهزم الكثرة الكافرة، والله يمد المؤمنين بجنود قد لا يراها الإنسان، وهي دعم وتأييد للمؤمنين الذين يخوضون المعمعة في سبيل الله، من أجل إعلاء كلمته، يقول شوقي مصورًا غزوة بدر، ومؤكدً المعاني التي وردت في القرآن بخصوص هذه المعركة:

يـــومٌ كبـــدر وخيـــل الحـــق راقـــصةٌ
عـــلى الـــصعيد، وخيـــل الله في الـــسحب

ويؤكد شوقي في شعره على أن الصبر والمثابرة، وأن التضحية والإقدام في معركة الحق الأكبر، هي السبيل لإحراز النصر، وقهر الأعداء، وإعلاء كلمة الله:

ومـــا استعـــصى عـــلى قـــومٍ منـــالٌ
إذا الإقـــدام كـــان لهـــم ركابـــا

كانت هذه الصيحات تنطلق في شعر أمير الشعراء، فيتردد صداها في جنبات العالم الإسلامي الشاسع، الذي وقع فريسة الاستعمار والقهر والاستغلال، وكان يهيب بجموع المسلمين،

كي يحطموا أغلالهم، وينطلقوا من إسارهم، وذلك كي يخوضوا معركتهم الكبيرة، في ضوء التعاليم الإسلامية الرائدة، وأن يلتزموا بالمبادئ التي جاء بها دينهم، سواء في حربهم أو سلمهم، وفي معاركهم الحربية أو الاجتماعية أو السياسية، وعلى الرغم من أنه كان «شاعر الأمير» من ناحية أو شاعر القصر، إلا أن ذلك لم يمنعه من التغني بالحرية والحكم الديمقراطي والشورى، حيث الشرعية واحترام الدستور، لذ نراه -حتى في معرض المديح- يقول في نونيته الشهيرة:

زمـــان الفـــرد يـــا فرعـــون ولّى
وزالـــت دولـــة المتجبرينـــا
وأصـــبحت الرعـــاة بكـــل أرض
عـــلى حكـــم الرعيـــة نازلينـــا

إلى أن يقول في وضوح وثقة مخاطبًا فرعون:

فـــؤادُ أجـــل «بالدســـتور» دنيـــا
وأشرف منـــك «بالإســـلام» دينـــا

وكانت أشعاره ضد الدولة الغازية منبثة في كثير من قصائده، لا يفتأ يدعو إلى الجهاد المقدس، من أجل الخلاص من قبضة الاستعمار وفساده، مما أدى إلى نفيه إلى أسبانيا لعدة سنوات، فعانى من مرارة الغربة والتشريد، لكن ذلك كله لم

يفت من عضده، ولم يضعف من عزيمته، فعكف على كتابة المسرحيات الشعرية لأول مرة في تاريخ الشعر العربي، وكانت هذه المسرحيات وعاءً لكثير من القضايا والأفكار، فقد صور فيها طبائع الشعوب، وخفايا القصور، ومكائد الغزاة، وعمّق فيها الشعور بالقيم الإنسانية عامة، وعلى الرغم من أن غالبية هذه المسرحيات ذات نزعة تاريخية، إلا أنه اتخذ منها منبرًا لبث أفكاره، والترويج لفلسفته النابعة من التراث الإسلامي، وروائع مبادئه وآدابه، كما تعرض فيها لحقبات قلقة مضطربة في تاريخ الإنسان أيًا كان لونه وعصره، وسجل فيها حقائق أزلية متنوعة، نراه مثلًا في «مجنون ليلى» يصور المجتمع وصراعاته السياسية التي تتخذ من الدين غطاءً لها، ففي حوار بين بعض المنتمين لأفكار معينة، يقول أحد الأبطال:

أحـــــب الحـــــسين ولكـــــنما
لـــــساني عليـــــه وقلبـــــي معـــــه
إذا الفتنـــــة اضـــــطربت في الـــــبلاد
ورمـــــت النجـــــاة فكـــــن إمّعـــــة

وهو بهذا التصوير القاسي الساخر، ينفر من النفاق، وينحو باللائمة على أولئك الذين يهربون من واقع الحياة، ويخلعون رداء الانتماء الأخلاقي الصحيح، وفي مصرع كليوباترا، يصور

كيف تنخدع الشعوب بالباطل، وتسير في ظل الزيف والبهتان. ولا تتبين الحقائق الأصلية، ويوجه سهام نقده للحكام الذين يغررون بالشعوب، وينحرفون بها عن الطريق السوي:

اســـــمع الـــــشعب «ديـــــوني»
كيـــــف يوحـــــون إليْـــــه
مـــــلأ الجـــــو هتافًـــــا
بحيـــــاتيْ قاتليْـــــه
يـــــا لـــــه مـــــن ببغـــــاء
عقلـــــه في أذنيْـــــه

لقد كانت ثقافة شوقي وإلمامه بالتراث العربي والإسلامي من ذلك النوع الأصيل الذي تشبع به من منابعه الأولى، وعايشه في حقبه المختلفة، ومن ثم كان لبنائه الفكري سمات معينة واضحة، إسلامية الروح، شرقية المشرب، ولم تنل من هذا البناء مكتسباته الثقافية والفكرية في فرنسا، بل دعمتها، وزادتها رسوخًا وشموخًا وقوة، كما حياة القصور، وتبعيته للخديوي لم تجعله يتخلى عن قضايا الشعب وحقوقه في الحرية، وفي تحسين أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.. كما وقف شوقي صلبًا في وجه المؤامرات والتحديات التي أرادت القضاء على الخلافة الإسلامية، ولم يكن دفاعه عن الخلافة دفاعًا عن أخطاء

بعض الخلفاء وبطانتهم الفاسدة، وإنما كان دفاعًا عن «الرمز الإسلامي» المتمثل في كيان الخلافة.

وكان شوقي بعيد النظرة، رحب الأفق، مرتبطًا في شعره بالأحداث العالمية الكبرى، وبشخصيات العصر الشهيرة، متعاطفًا مع حركات التحرير في شتى الأنحاء، فنراه مثلًا يستقبل غاندي في مصر بقصيدة طويلة يقول فيها:

سـلام النيـل يـا غانـدي

وهـذا الزهـر مـن عنـدي

سـلام حالـب الـشاة

سـلام ناسـج الـبردِ

ويحذر غاندي من الاستعمار وألاعيبه ومؤامراته، فيقول:

وقـل هـاتوا أفـاعيكم

أتـى الحـاوي مـن الهنـدِ

والواقع أن المتصفح لديوان أمير الشعراء، يجد فيه سجلًا حافلًا للتاريخ الإسلامي وأحداثه الكبرى، ويستخلص منها العبر والدروس، ويدعو الأجيال الجديدة للعودة إلى تاريخها، والنهل من منابعه الروحية الخالدة، ويعتبر ذلك هو البداية الحقيقية للانطلاق إلى عصر التحرر والعلم والكفاح، ولقد ترنم بمجد قرطبة، وعظمة دمشق، وانتصارات بغداد، في عصور

التاريخ الإسلامي الزاهر، وأحيا تلك الأمجاد الخالدة، التي ما زالت سطورها تضيء عبر القرون المتعاقبة..

ومع أن شوقي لم يكون فيلسوفًا، ولا زعيمًا سياسيًا، إلا أنه كان «معلمًا» بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، ومن ثم لم يكن هناك مثقف ولا طالب في مدرسة، ولا خطيب على منبر، إلا وترنم بأشعاره، واستشهد بها في كلامه، وليس هذا بعجيب بالنسبة لشاعر، يعتبر من أحسن شعراء العربية في تاريخنا الطويل..

وما زال شعر شوقي في حاجة إلى مزيد من الدراسة والتحليل فيما يتعلق بالنواحي الإسلامية فيه، وما أكثرها، وليت المسؤولين يحاولون طبع هذه الألوان الإسلامية من شعره طبعات شعبية، توزع على طلبة المدارس وفي الأندية، حتى يلموا بروائع هذا الشاعر العظيم الذي عاش مخلصًا لوطنه.. ودينه.. وعصره.. على ضوء الإسلامية الخالدة.. وهل الإسلامية إلا منهج في الفكر والسلوك؟؟ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[البقرة:138].

***

الفهرس



الموضوع	الصفحة

***